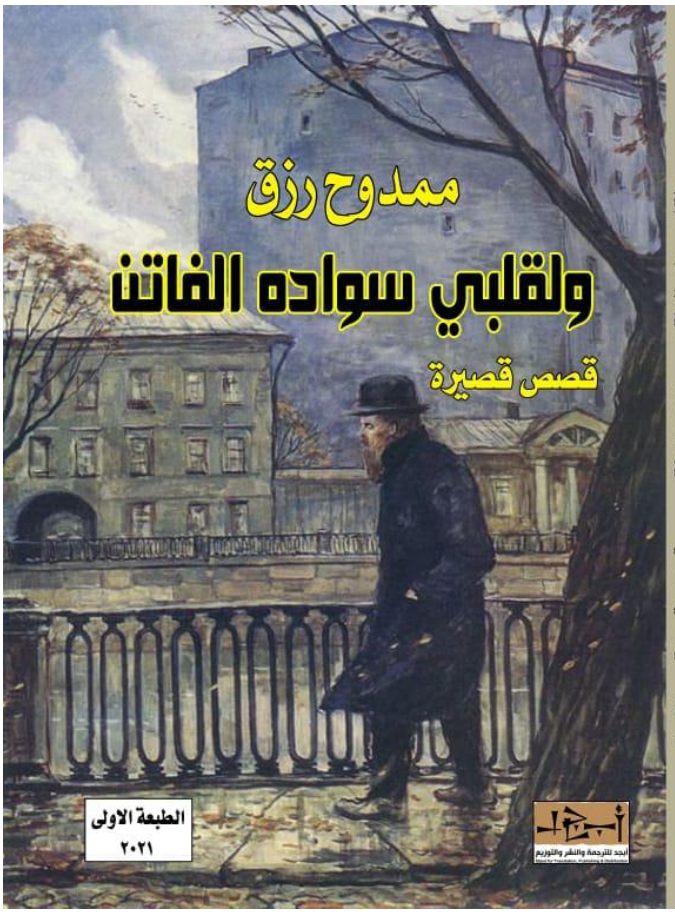

ممدوح رزق

ولقلبي سواده الفاتن

قصص قصيرة

الطبعة الاولى
٢٠٢١

أبجد للترجمة والنشر والتوزيع

ولقلبي سواده الفاتن ممدوح رزق قصص قصيرة ٢٠٢١

9 789922 950341

أبجد للترجمة والنشر والتوزيع
Abjad for Translation, Publishing & Distribution

ولقلبي سواده الفاتن

ممدوح رزق

قصص قصيرة

الكتاب: ولقلبي سواده الفاتن
المؤلف: ممدوح رزق
التصنيف: قصص قصيرة
تصميم الغلاف: مكتب فدك للتصميم
التنسيق الداخلي للكتاب: علي هادي
ISBN : 978-9922-9503-4-1

الطبعة الاولى
٢٠٢١

مؤسسة أبجد للترجمة والنشر والتوزيع
العراق – محافظة بابل – الحلة – شارع اربعين
جوال : 009647831010190
info@ebjed.com

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميا وإتاحته عبر شبكة الانترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

ولقلبي سواده الفاتن

قصص قصيرة

ممدوح رزق

أبجد للترجمة والنشر والتوزيع

"ليل نهار، تخنقني فكرة أن حياتي ضاعت، وبلا رجعة. ليس لدي ماض، لقد بددته بحماقة على التفاهات، والحاضر فظيع في لا معقوليته. هذه هي حياتي، وهذا هو حبي .. إلى أين أذهب بهما، وماذا أفعل بهما؟ شعوري يهلك هدرًا كشعاع الشمس الساقط في حفرة، وأنا أيضًا أهلك".

انطون تشيخوف
مسرحية "الخال فانيا"

ولقلبي سواده الفاتن

... وبعد أن أخبرهم بكل ما ينبغي عليهم معرفته عن ذلك الرجل؛ طلب من طلاب ورشته الاشتراك في كتابة قصة قصيرة تبدأ بعثوره على المصباح السحري وخروج المارد التقليدي الذي بإمكانه أن يحقق له أمنية واحدة فقط .. طلب منهم تخيّل أن تكون هذه الأمنية هي عودة الرجل إلى عمر الثامنة عشر حيث الوقت الذي بدأت فيه طموحاته أو "أحلام الهيمنة" تتحوّل بحسم مثابر إلى خطط عملية محددة، يتلاحق تدوين خطواتها وتعديلها واستدراك هزائمها في دفاتر وأوراق تأملية أشبه بخزائن سرية للأمل .. أكد على طلاب الورشة بأنه سيعود ثلاثين عامًا إلى الوراء دون أن تتغيّر طبيعته، ودون أن يتبدّل الواقع؛ إذ كان يحتاج ذلك التحوّل قطعًا إلى تحقيق أكثر من أمنية واحدة .. عاد الرجل ثلاثين سنة حاملًا الدفاتر والأوراق المغايرة تمامًا، الرجاءات المتحسرة التي تمنّى لو كانت بديلة لخطط الماضي، ولم يعد ثمة زمن يكفي لتنفيذها أو روح تلائم وجودها إن تحقق شيء منها.

بعد انتهاء الوقت المحدد؛ بدأ كل طالب منهم قراءة ما كتبه:

"وجد نفسه مرة أخرى عاجزًا عن التقرّب إلى الفتيات أو النساء، كما ظلت كل الظروف التي تحاصره كما هي؛ لا تمنحه أدنى معاونة في هذا الأمر، ولأنه وصل مجددًا إلى ذروة عدم القدرة على تحمّل البقاء في بيت العائلة، أو العيش بدون جسد امرأة، ولأنه لم يكن قادرًا على الاستقلال بحياته في منزل آخر، ولأنه لم يعرف في حياته سوى ابنة الجيران التي أحبته منذ الطفولة بالرغم من كل شيء؛ فقد وجد نفسه مضطرًا للزواج بها ثانية".

"حاول أن يكون له المزيد من الأصدقاء، وأن يتجنب أي ضغينة بينه وبينهم طمعًا في توفير أدوات مساعدة أكثر لتحقيق رغباته المستعصية في المتعة والعمل، وامتلاك خيارات صالحة لتكوين فريق مغامرات كوني لا تُخدش صلابته الحميمية، تجنبًا لتراكم الضرورات الانتقامية التي لن يتمكن تنفيذها .. لكنه ظل منعزلًا، بصداقات محدودة، وانكماش مرتبك أمام الغرباء، يصطاد كل ما لا يستطيع منعه من نظرة أو ابتسامة أو كلمة تستهدف غفلته، ويحتفظ بها داخل السواد الفاتن لقلبه .. لهذا لم تتسع تلك المساحة الهزلية الشاحبة لما يسميه مضطرًا لذة جماعية، ومكسبًا مهنيًا عن تلك البقعة القديمة التي تحنّطت داخلها خطواته .. لم ينجح نتيجة لذلك في تكوين جماعة المغامرين الطفولية التي حلم بها .. مرة أخرى لم يكن هناك إلا توسلات متجذرة لثأر لا يتم".

"حاول أن يكرّس وقتًا أساسيًا لقراءة كل ما يتاح له من تاريخ الأدب البوليسي، والقصص المصوّرة، وأدب الطفل، والخيال العلمي، والرعب، ووثائق الغرابة والغموض على مدار الزمن، وأن يعيد خلق كل نص كُتب في هذه المجالات، وأن يشاهد جميع كلاسيكيات المسرح والسينما والدراما والكارتون، ويستمع إلى كل الموسيقى والأغنيات والمسلسلات الإذاعية القديمة التي أرادها، وأن ينغمس تمامًا في طفولة الثمانينيات .. لكن ما حصل عليه من ذلك الأمر لم يزد عن مقدار قبضة يد يائسة داخل بحر، حيث ظل أغلب وقته منقسمًا بين كتابة القصة القصيرة والتفكير في كتابة القصة القصيرة".

"حاول أن يجعل من ضمن مشاغله الرئيسية البحث في تاريخ مدينته، لكنه لم يكن يريد أن يعمل وحده، كما ظل يتسلل ضجرًا خارج أي مجموعة

بحثية يكوّنها، فضلًا عن عجزه الاحترازي عن التقرّب من شخص لا يعرفه حتى لو كانت لديه ذكريات ثمينة عن ماضي المدينة .. ظل يلتقط الأطياف الباهتة لذلك التاريخ ويختزنها في مخبأه البعيد وحسب".

"حاول أن يحفر بصلابة في تاريخ عائلته .. أن يعرف كل المعلومات والحكايات التي يجهلها عن أصولها وماضيها، لكنه لم يكن قادرًا على أن يسأل أحدًا من أسرته أو أقاربه عن أي شيء يتعلق بالأمر إلا في النطاق البائس الذي لم يتجاوزه من قبل، ولهذا لم يعرف عن ذلك التاريخ إلا القشور الغائمة ذاتها".

"حاول أن يحصل على النقود التي تتيح له امتلاك المتعة التي طالما تطلع إليها، وأخفق في الوصول إليها مستقبلًا .. حاول أن يجرّب الطرق والحيل الشائعة التي تؤدي لذلك لكنه فشل .. ظل يراقب من حوله وهم يبرعون في كسب النقود والاستمتاع بها، ومراقبة نفسه وهو يحاول بقروشه القليلة التشبث بأي ظل تعيس ومخادع لتلك المتعة".

"حاول أن يكون صديقًا للجميع في الوسط الأدبي، كي يُعوّض من خلالهم بقائه خارج مهبل العاصمة، وكي يُخرّب بصورة أكثر لطفًا ما تمنحه لهم من يقين زائف بالتفوق .. لكن صداقاته بقيت قليلة للغاية، وظل منفصلًا عن أي تعويض، ويضاجع ـ حتمًا دون تهذيب ـ البلاهة المتعالية للمحشورين داخل المهبل المركزي".

شعر ببهجة الاطمئنان وهو يستمع إلى ما كتبوه بعدما اتفقوا جميعًا على أنه طالما لم تتغيّر طبيعته، ولم يتبدّل الواقع فإنه سيكرر بدقة محكمة ما عاشه من قبل .. كان متبقيًا طالبة واحدة فقط راحت تقرأ مشاركتها:

"عاش الرجل مرة أخرى نسخة مطابقة تمامًا لحياته السابقة .. لكنه حينما وصل في عمر الأربعين إلى اللحظة التي يجب أن يعثر خلالها على المصباح السحري؛ صادف بدلًا من ذلك فتاة عشرينية في ورشته القصصية .. كاتبة تبدأ خطواتها الأولى وفقًا لإرشاداته، ولا تعرف حقًا هل يرى التشوّق المستقر في عينيها تجاهه أم لا .. هل يشعر بحبها له في كل كلمة تخاطبه بها؟ .. هل يدرك إشارات رغبتها في تعويضه عن كل شيء والمنبعثة دومًا من جميع أفعالها أمام عينيه؟" ...

لم يصّدق ما يسمعه .. كانت دقات قلبه التي تلاحقت بقوة الارتباك والسعادة أقرب إلى طوفان من الشك في حقيقة وجوده داخل ذلك المكان وأثناء تلك اللحظة وأمام هؤلاء الأشخاص اجتاح دماءه فجأة .. حاول أن يبدو متماسكًا تحت ثقل الرجفة الفردوسية التي لم يختبرها جسده أبدًا من قبل .. أكملت طالبة الورشة:

"كانت تريده أن يرى ويشعر ويدرك كل هذا حتى يبدأ معها الحياة التي لن يحققها له أي مارد .. الحياة التي لا تُقاس بتوقيتها أو بالزمن الذي ستستغرقه، وإنما بما ستكون عليه اللحظة الواحدة منها حيث كل لحظة هي تلك الحياة كاملة .. حياة لا تنجز صياغة حاسمة للماضي فحسب، وإنما للتواريخ المجهولة كافة التي ظلت تحاصر ذلك الماضي وتطبق عليه وتنتجه أيضًا .. سيكون ذلك هو نهاية الطموح، والموضع الأخير للرجاء، والانطفاء التام للحسرة .. ستكون الحياة التي لا تسمية لها سوى (الذروة العادلة للغموض)".

كان التساؤل الذاهل الذي يدوي في رأسه حول ما وراء هذا التحقق المثالي للمعجزة التي حلم بحياته تنتهي في سرها؛ كان ذلك التساؤل يفتت عظامه بنعومة لا تُحتمل .. شعر بدوار المفتون حين لا يستوعب خلاصه الذي تجسّد أخيرًا فيراه هلاكًا محتومًا .. كان يحلق بألوهة مستحقة كأنها قصاص الغيب من روح الشيطان التي تسكنه .. تواصل الفتاة:

"نعم .. كانت تريد طالبة الورشة أن يرى ويشعر ويدرك أستاذها كل هذا بوصفه إحدى مكائد القص التي تعلمتها على يديه .. أن يعرف إلى أي مدى أصبحت بارعة حين تكتب أن كلمات الغرام التي وجهتها إليه كانت تقصد بها في حقيقة الأمر زميلها في الورشة الذي يجلس دائمًا بجوار النافذة، ويحمل حقيبة قماشية زرقاء، ويحب يوسف إدريس أكثر من نجيب محفوظ .. بهذا تتوّج الحياة المهينة لذلك الرجل بالختام المثالي اللائق".

أنهت الفتاة القراءة ثم غمزت بابتسامة ولهانة إلى الشاب الجالس بجوار النافذة، والذي التفت إليه مشرف الورشة فوجده يبتسم بخجل متباه بينما تصاعدت ضحكات زملائهما الممتزجة بنشوة تصفيقهم الاحتفالي.

لم يبتسم الرجل حقًا إلا في صباح اليوم التالي .. حينما انتهى من تخيّل كل ما حدث في الورشة، ثم بدأ في كتابة هذه القصة.

شيء في مكان ما

... وكما أخبرتك من قبل فالأمر يسير وفقًا لما هو متوقع حيث ظللت أبحث في الأيام الثلاثة الماضية عن شيء ما، وأجهدت نفسي ومعي ابنتي في التفتيش عن ذلك الشيء قبل أن أتذكر أنه لم يكن لديّ أصلًا .. حدث هذا وأنا في الثالثة والأربعين .. ليس بعد الستين مثلك، ولكنني سبق أن قلت لك أنه من المنطقي أن يحتفل جسدي ـ بما أنه الجسد الأخير ـ بالمعجزات التي تمثّلت في كل واحد منكم مبكرًا عن موعدها معه في الماضي .. أعرف الخطوة التالية ـ مثلما تعرفها أنت بالطبع ـ وهي أنني سأبحث عن شيء لا أمتلكه ولا أتذكر اسمه، وستعجز ابنتي حين أطلب مساعدتها في العثور عليه عن فهم استغاثتي المبهمة .. أنا متأكد من أنني لن أصفعها حينئذ .. دون شك أنت تفهمني جيدًا .. نعم، أنا متأكد من أنني لن ألطمها على وجهها أبدًا، ولكنني أرجو أيضًا ألا يدفعني الشعور بالإذلال وقتها إلى ارتكاب فعل آخر يتسبب في حزنها .. بعد ذلك سأفتش عن شيء لا أمتلكه ولا أتذكر اسمه وناسيًا حتى شكله؛ الأمر الذي سيؤدي بي إلى التوقف فجأة عن البحث ثم الرضوخ ليدي ابنتي المرتعشتين بينما تربت على كتفي، وتقودني إلى مقعد في حجرة المعيشة لأظل جالسًا طوال الوقت .. طوال الوقت يا أبي حتي نهاية حياتي، عاقدًا كفيّ في صمت لا ينقطع، وأحدّق إلى الفراغ بعينين خاملتين كأنما لا ينقصني أي شيء.

ما قبل انسداد الأمعاء

اليوم ذهبت إلى الطبيب وحدي .. سألتني الممرضة وأنا أدفع ثمن الكشف إن كانت تمطر في الخارج .. أجبتها بارتباك مقتضب: "نعم" .. كأني لم أعتبره مطرًا حقًا إلا حينما سألتني .. كانت قد لاحظت بعينيها الناعستين أثر قطرات الماء على شعري وملابسي، وكان لصوتها نبرة ريفية ضجرة، وتبدو في بداية العشرينيات، وحينما انتهيت من تخيلها تؤدي "بلوجوب" بشفتيها الصغيرتين المطليتين بالأحمر الثقيل الداكن للطبيب العجوز الذي حضر إلى العيادة بعد مجيئي بلحظات؛ تصوّرت أنني نجحت مؤقتًا في ترويض عدم وجودِك على الكرسي الفارغ بجواري .. كان موعدًا تخلّفتِ عنه رغمًا عنكِ .. سنوات طويلة قضيناها في لعبة التبادل منذ كنت في الثامنة عشر تقريبًا، وأنتِ تقتربين من الستين .. كان كل منا منذورًا لاصطحاب الآخر إلى عيادات الأطباء، وأقسام الاستقبال الليلية في المستشفيات حين تداهمه نفس الأعراض فجأة .. كان مرضنا واحدًا، ولكنه انتهى منكِ منذ عشرين سنة، بينما لا يزال مقيمًا داخلي، ويستعيد ذكرياته معكِ .. خلال هذه الأعوام العشرين كبرت أنا أضعافها، ولكنه ليس العُمر الذي يحوّل طفلًا إلى كهل بل ذلك الذي يجعل الطفل يشعر بما تعنيه كهولته.

أول أمس تفاقمت عندي ظواهر المرض .. التطورات المباغتة ذاتها التي انتقلت بكِ من البيت إلى المستشفى ثم إلى القبر في خمسة أيام فقط .. حاولت التعايش معها بأمل أن تخفت حدتها ثم تختفي بتأثير الأدوية التي اعتدت تناولها على فترات متباعدة، لكنها لم تُظهر أدنى استعداد للتراجع ..

أعتقد أنني وأنتِ نستطيع قبول فكرة أن المرض ليس ذاتًا تتكوّن بتراكم البصمات الطائشة للجسد، وإنما هو حلم بلا رأس .. خيال يستمر في تجسيد نفسه دون وعي كوجوه وأبدان متباينة، وحين يكتمل يكون الموت.

خرجت من الصيدلية وفي يدي كيس الأدوية التي طلب مني الطبيب المواظبة عليها لمدة شهر كامل .. فكرت في أنها أدوية كثيرة لدرجة أنها احتاجت إلى كيس، وأن هذه أطول مدة يطلب مني طبيب تناول العلاج خلالها .. دخلت من الباب الأمامي لمحطة القطارات ـ حيث أختصر الطريق إلى بيتي عندما أخرج من بابها الخلفي ـ وأنا أفكر في أنه أصبح لدي "كيس أدوية" مثلكِ، وأنني سأداوم على أخذها لفترة كبيرة كما كنتِ تفعلين .. فكرت في هذا بصيغة المخاطب .. كنت أخبرك صامتًا بالأمر بما أنكِ لا تسيرين بجانبي في تلك اللحظات، ولكنك بالتأكيد ستسمعينني حين أقوله لكِ في داخلي.

يبدو أن الأشياء تتكرر على نحو يحتّم أن تكون النسخ اللاحقة أكثر هزلًا من التي تسبقها .. كأن الزمن ليس إلا رسّام كوميكس هرِم، يواصل فقد رصانته كلما استعاد ماضيه، وذلك تحديدًا هو الشرط المضمون لبراعته .. لكنني ـ مثل أي كائن آخر ـ لست نسختي .. أنا عبد لها .. نسختي تخضعني بعفوية حصينة كي أحققها في كل لحظة، وبواسطة أبسط الأشياء، وأقلها إثارة للاهتمام: خدش صغير في سطح طاولة الطعام .. سعال خاطف لأحد العابرين أسفل الشرفة .. ظل متكسّر للافتة دكان فوق حافة رصيف .. كل شيء، مهما كانت ضآلته هو في حقيقته إلهام مُحكم تُقود به النسخة أداءاتي حتى أستمر في تنفيذها .. حتى انتهي من قتل نفسي والآخرين فتمرر حينئذ خلودها في جسد مغاير بكوابيس مختلفة تتسق مع أصلها .. لا أتعرّف على استقلالي عن نسختي

إلا حينما أفكر بهذا الشكل .. لا أتذكر انفصالي عنها إلا حينما أكتبه .. وبما أنني أفعل هذا طوال الوقت فإنني أدرك نفسي دائمًا كمجرد فراغ مُستعمل .. عدم يُستخدم بصورة مؤقتة.

أثناء عبور الممر السفلي للمحطة رأيت طفلًا مع أمه .. عمره لا يتجاوز السادسة، وكان يمشي بصعوبة .. لم أكن متأكدًا بالطبع أنها أمه، ولكنني اعتبرتها كذلك بديهيًا .. بدأت تسبقه في صعود سلّم جانبي يقود إلى أحد أرصفة المحطة، وكان بقدميه المريضتين يحاول اللحاق بها .. لم تكن تحمله رغم جسده الهش، ولم تكن تُمسك بكفّه على الأقل وهما في طريقهما إلى القطار .. كانت تقطع الدرجات سريعًا، وهو بخطواته الثقيلة المترنحة يصعد ورائها، ويده الصغيرة تقبض على الحاجز المعدني المائل للسلّم .. كان الحاجز بديلًا ليدها .. وقفت في منتصف الممر مراقبًا اختفاء المرأة بعد وصولها الرصيف بينما الطفل الذي اختفت المرأة من عينيه أيضًا لا يزال يواصل الطلوع بمشقة لاهثة .. كان يرتدي حذاءً منزليًا خفيفًا، مفتوحًا من جميع جوانبه .. كأن محطة القطارات بكل امتداداتها هي منزله، حيث يجب أن تبقى قدماه - رغم كل شيء - عاريتين داخلها .. رأيت في عينيه حزنًا متحيّرًا، غمًّا لا يفهمه، ليس بسبب ابتعاد أمه عنه لأعلى واختفائها، وإنما لأنه لا يستطيع اللحاق بها .. لأنه يصعد ببطء دون أن يعرف لماذا فُرض على حركته أن تكون عسيرة هكذا .. كانت ملامحه تقول أنه يجب عليه أن يدرك أمه لا أن تتمهّل خطواتها من أجله .. لذا كانت هذه الملامح منطفئة بالتخوّف من مستقبل هذه اللحظة .. كان اختفاء أمه يبدو كما لو أنها تهرب منه .. كما لو أنها ستستقل القطار بدونه .. لكنها حتى لو انتظرته؛ يكفي تلك المسافة التي

اجتازتها قبله، وتركته خلفها يخوضها وحده ليتبدد الفرق بين هروبها وانتظارها له .. انتظرت حتى اكتمل صعود الطفل واختفاؤه فوق الرصيف ثم عاودت التحرّك نحو الباب الخلفي للمحطة .. خرجت إلى الشارع وأنا أبكي .. عبرت المساحات الصغيرة المتقاطعة من باب المحطة إلى بيتي سعيدًا لأنني أبكي .. لأن جسدي ينتفض مرتعشًا مع كتمان النحيب .. لأنني قادر على البكاء في الشارع بين الغرباء .. بين بشر لا يعرفون بعضهم، وقد جعلهم بكائي أقرب إلى أطياف لازمنية تحلّق بالحركة البطيئة فوق أرض تختصر الأماكن كلها .. كان بكائي كينونتهم المنفلتة التي تتطوّح بين عمائهم .. تاريخهم الأزلي الذي يغطي أشلائهم ويدور حولها ويخترقها ثم يعود ليستقر داخل انقباضات صدري في صورة طفل بقدمين مريضتين، يصعد سلمًا طويلًا وحده .. كنت سعيدًا لأنه ربما ثمة مجهول يراقب هذا البكاء من مكان سري يرتبط بالذاكرة .. بالمدينة .. بالعالم .. كيان غامض قد يقوم بمعجزة أبدية شاملة وفقًا لهذا البكاء، أو يعتبره ـ إن لم يفعل ـ أثرًا دامغًا لسخريتي من وجوده.

وصلت إلى البيت .. ليس إلى السنتيمترات المنيعة في ركن سرير الطفولة تحت الأغطية الثقيلة في الشتاء عند سقوط المطر .. المخبأ الكوني الذي طالما حاولت الانكماش بما يسمح لي أن أسكنه برفقة ذخيرتي الملائكية من القصص والألعاب والتخيلات حيث لا أحتاج شيئًا من الخارج .. الذي مازلت أحاول الولوج إليه مع طفلتي بينما "نتشبث" بحوافه الناعمة.

وضعت كيس الأدوية في درج الكومودينو المجاور لسريري .. طفلتي رأتني أفعل ذلك فسألتني عما قاله الطبيب .. أخبرتها بالأمر مبتسمًا وأنا أراها تقف وراء النافذة الزجاجية لغرفة العناية المركزة، وتتابع خطوط الشاشة

المتصلة بقلبي .. رأيتها أيضًا وهي تراقب يدي الطبيب بينما تحاولان إعادة الحياة إلى صدري ثم وهي تهبط السلم من غرفة العناية المركزة إلى حجرة المُرافِق بالمستشفى لتضع في حقيبتها كتاب "الأعمال القصصية الكاملة لتشيخوف" الذي كانت تقرأ منه كل ليلة .. رأيتها تخرج إلى الشوارع التي لن تصدّق كيف تستمر كائناتها في الوجود كما كانت .. لكنه في مقابل استيعابها بمرور الوقت أن العالم لن يعطله أي موت؛ لن يكون بمقدورها أبدًا بعد تلك اللحظة قبول أن ذلك الذي يتساقط من السماء مطر حقًا.

دليل الألوهة

كأي شخص عادي كان يقابل بشرًا في كل مكان يذهب إليه ويتحدث معهم .. لكنه منذ أصبح في الثامنة عشرة تقريبًا بدأ طقسًا يوميًا لم يتوقف طوال سنوات لاحقة .. كان يعود كل مساء إلى بيته ثم يضع شريطًا فارغًا في الكاسيت ويسجّل ردوده على الآخرين الذين قابلهم في ذلك اليوم .. ليست الردود التي قالها بالفعل، وإنما التي كان يجب أن يقولها .. كان يستعيد أحاديثه مع كل شخص تكلّم معه ثم يوثق في نهاية اليوم الكلمات التي لم يتذكر أن يقولها، أو التي رغب أن يقولها ولم يستطع، أو التي لم يتمكن سوى أن يتفوّه بظلال مائعة لها .. كان يعيد مخاطبة الجميع ولكن بالطريقة الصحيحة.

بعد فترة استغنى عن شرائط الكاسيت وبدأ يسجّل استدراكاته اليومية على الهاتف المحمول حتى أصبح بعد سنوات طويلة يمتلك مخزونًا هائلًا من الملفات الصوتية يماثل ذلك الذي يحتوي شرائطه القديمة .. حتى جاء اليوم الذي توقف فيه عن الخروج من بيته .. اليوم الذي بدأ فيه بالضرورة التوقف عن مقابلة البشر إلا قليلًا جدًا، ومن ثمّ لم يعد هناك حوار حقيقي بينه وبين أحد .. لم يعد لديه ما يوثّقه فتوقف عن التسجيل .. أصبح يعيد الاستماع يومًا بعد آخر لتسجيلاته منذ البداية كأنما يسترجع ذكريات حياة أخرى، مستقلة عن تلك التي عاشها حقًا .. حياة أصلية .. ولم يكن هناك ما يؤنس وحدته أكثر من تخيّل اليوم الذي سيستمع فيه كل الذين تحدث معهم في تلك الشرائط والملفات الصوتية إليه .. إلى ما قام بتسجيله بعيدًا عن عيونهم .. كان يعرف أن هذا اليوم سيأتي بعد موته .. وبالرغم من أنه لم يكن لديه تصوّر منطقي محدد

للكيفية التي ستصل بها التسجيلات إليهم حين يكون راقدًا في قبره؛ إلا أنه كان موقنًا أن الأمر سيتحقق.

لكن ما لم يكن يتوقعه ـ ولم يكن هناك أيضًا سبب منطقي لعدم التوقع ـ بدأ يحدث .. مات واحد منهم ثم تبعه آخر قبل أن يلحق ثالث بهما .. بدأوا يموتون وهو لا يزال حيًا، يواصل الاستماع إلى الشرائط والملفات ولا يدري ماذا يفعل .. لم يكن بوسعه أن يعطي أو يرسل لأحد منهم التسجيلات التي خاطبه خلالها .. كان يدرك أن استماعهم إلى تسجيلاته يشترط عدم وجوده للأبد .. أن يكون غائبًا على النحو الذي يضمن ألا يلتقي بأي منهم ثانية .. كان يدرك أنه لن يستطيع أن يقوم بهذا وهو على قيد الحياة .. لن يتمكن من الابتعاد كل هذه المسافات وهو ما زال يتنفس .. لم يكن غريبًا إذن أنه حينما أراد الاستماع مجددًا إلى الشرائط والملفات التي تحدث فيها إلى الذين أصبحوا موتى وجد ضحكاتهم مسجّلة بدلًا من كلماته .. لم يكن هناك أدنى أثر لصوته .. ضحكاتهم فقط .. لم يكن غريبًا أيضًا أنه بعد انكماش تدريجي للألم الذاهل الذي تملّكه نتيجة لذلك؛ وجد نفسه يفسر هذا الاستبدال الفادح بأن تلك الضحكات هي ثمن بقائه حيًا .. أن الوتيرة لن تتعطل .. سيتعاقب موتهم، وستبدد ضحكاتهم صوته من التسجيلات تباعًا، وفي كل مرة يحدث هذا سيقطع خلوده خطوة جديدة .. أنه نوع العذاب الذي ليس إلا دليل الألوهة حيث أن من جرّبت كلماته التي لم يسمعها إلا هو الفناء فإنه حتمًا لن يختبره ثانية.

خيوط الفناء

في لحظة ما ستعجز عن سماعهم مجددًا وهم يتحدثون أو يضحكون .. لن تقدر حتى على تخيّل صمتهم أو الطريقة التي كانوا ينظرون بها إلى ما حولهم مرة أخرى .. كل أصواتهم ستتحوّل في ذاكرتك حتى النهاية إلي بكاء .. أنفاسهم ستصبح توجعات، وعيونهم ستكون دموعًا فقط .. اللحظة التي تكشف فجأة عن طغيانها الأبدي بالرغم من أنك تعرف تمامًا أنها استغرقت زمنًا أطول مما يمكنك تصديقه .. لكن ما يبدو تمهيدًا بطيئًا كي تدرك بأن ذهنك كان يعمّل دائمًا كآلة تسجيل سرية لأرواح الجحيم المخبوءة في أجساد الموتى؛ لم يكن في حقيقته سوى ضربة فأس خاطفة، تتركز سطوتها في الإيهام بأنها حدث متدرّج، واقع ينمو بمرور الوقت .. سيكون أكثر رجاءاتك وحشية أن تمتلك دليلًا مُحصّنًا بأن ما تراه وتسمعه في ذاكرتك ليس إلا وهمًا لئيمًا .. أن مشاهد عذابهم ليست إلا بصمات المزاج الملعون لذهنك الذي يحتفظ بالجثث في عتمته مثلما يواري طفل متوجّس ألعابه في صندوق مغلق أسفل سريره .. ستظل تتوسّل في كل لحظة أن تسترد أصواتهم ونظراتهم المألوفة حتى التي طالما اعتصرت نفسك بالخوف والغضب والضجر .. ستتمنى استعادة هذا الاختناق المروّع ثانيةً، كأنه نوع من طمأنينة أصابها سحر شرير، يمنعها من التجسّد ولو كذكرى متهالكة .. لن تستطيع أن ترى الوجوه التي كان يمكنّك تمييزها وأنت مغمض العينين، ذلك بعد أن عرفت أنك دُفنت معهم.

العلامات المميزة

ثمة علامات مميزة تتواجد في قصصي القصيرة: صوت ذكوري، بالغ القوة والعمق والثقل، يبدو كأنما يتلو طوال الوقت كلمات غامضة لطلسم لانهائي عبر مكبر صوت كوني يحلّق خارج الأرض مُكسبًا حروفه أصداءً مروّعة .. امرأة في منتصف العمر، متوسطة الطول، وذات شعر طويل يموّج نعومته أسود قاتم، يرسم عينيها الأموميتين كحل حاد، ويورّد بياض وجهها مكياج خفيف، وترتدي دائمًا ما يغطي كامل جسدها عدا التوهج اللامع لثدييها الكبيرين في حين تتبدل مواضع جلوسها المتشوّق بين مختلف الأماكن غير المتوقعة .. جثة مشوهة ترقص على نغمات وإيقاعات موسيقى لا يسمعها إلا هي، تتساقط أشلاؤها دون توقف أثناء الرقص بينما تتلفت حولها بنظرة ثابتة، ليس فيها سوى رجاء بأن ينجح أحد في تحديد ماهية تلك الموسيقى عبر أداءاتها الخرساء، ومن ثمّ يكشف هو الآخر عن الجثة المشوّهة الكامنة وراء جلده حتى يشاركها الرقص.

ربما لن تعثر على تلك العلامات بوضوح تقليدي لكنها ستتسلل في خفاء تام عبر هذا الصمت المنعزل الذي تقرأ القصة من خلاله فيتحوّل إلى ذاكرتك الأصلية بحيث لن يكون في آخر عمرك صمتًا وداعيًا مقترنًا فحسب بالعلة التي تُنهي حياتك، وإنما ستدرك في لحظتك الأخيرة أن ذلك الصمت وحده هو سبب موتك.

بصمات سماوية

شعر بالندم لأنه حرّك عينيه تلك السنتيمترات القليلة من شاشة التليفزيون إلى طفلته الجالسة بجواره .. كان التفاته عفويًا بعدما لمح يديها ترفعان هاتفها المحمول فجأة ليتبين له أنها تلتقط صورة مقرّبة لوجه الولد الصغير "جيسون دروكر" بطل فيلم Diary of a Wimpy Kid: The Long Haul .. في هذه اللحظة أراد بشكل مباغت أن يتذكر اسم صاحب محل النظارات القديم، والذي كان مطبوعًا على الجراب الجلدي للنظارة التي تستعملها أمه الميتة... حاول على الفور معالجة تطفله غير المتعمّد بعدما انتبهت طفلته بارتباك لم تنجح في إخفائه إلى رؤيته لها وهي تلتقط الصورة؛ فسألها بابتسامة ودودة إن كانت ترغب في أن يحمّل لها الفيلم من الإنترنت على الجهاز الخاص بها .. أجابته بخفوت مصطنع في الاهتمام بأنه لا بأس لو فعل ذلك .. تذكر حينئذ أنه لم يعرف أبدًا إجابة لهذا الاستفهام: لماذا يبدأ أحيانًا تآكل بعض الصور التي مر عليها زمن طويل من حوافها أي في الأطراف المحيطة بالوجوه التي تسكنها، بينما يبدأ تآكل الأخرى من منتصفها حيث توجد الملامح تمامًا؟ .. نهضت طفلته وتوجهت إلى حجرتها في حين بقي هو أمام التليفزيون يتأمل ملامح الولد الصغير على الشاشة كأنما عينيه عاهتان مستديمتان أعيد فتحهما للتو .. لم يعش لحظة كهذه مع طفلته من قبل، لكنه يسترجع فجأة ما كتبه منذ ثماني سنوات تقريبًا في إحدى رواياته عن ذكرى واقعية: شقيقته الكبرى تلتقط من التليفزيون صورًا بكاميرا الموبايل لأحد الممثلين الأتراك، بعد أن رفض تنزيل صوره لها من الإنترنت الذي لم تكن تجيد استخدامه وقتئذ .. فكّر في لماذا ظل هذا المشهد متواريًا للحظات بالنسبة

له وهو يتمعّن في وجه طفلته منذ قليل .. كانت شقيقته في بداية الثلاثينيات حينما أطفأت ضوء الحجرة وجذبت البطانية لتغطي جسدها وهي تمسك بالموبايل وتحدق في صورة الممثل، أما الآن فهي ترقد داخل قبرها بعد أن أنهت حياة ستين عامًا وحيدة في بيت العائلة .. شعر بأن شيئًا غامضًا في داخله تعمّد ذلك النسيان المؤقت .. نفس الشيء ربما الذي يحاول أن يصل باللعبة الأزلية معه إلى مستوى أكثر جموحًا فيقوده للتفكير في أن الأمر ليس راجعًا للصدفة أو لضرورة التماثل، بل إليه هو نفسه .. يدفعه للاعتقاد بأنه حينما كتب هذا المشهد منذ سنوات فقد جعله قدرًا حتميًا لطفلته .. كان أبعد ما أراده، وأكثر ما تمنى فعله أن يدخل حجرة طفلته الآن.

خط دموي داكن

بعد شهور قليلة من زواجه اكتشف أنه لن يستطيع الإنجاب إلا بعد إجراء عملية جراحية .. وبالرغم من رغبته الطبيعية في الأبوة، ومن تأكيدات الجميع بأنها جراحة بسيطة إلا أن رعبه من الموت ـ خاصة بعدما علم أنها تتطلب تخديرًا كليًا ـ دفعه لرفض إجرائها الأمر الذي أدى بعد تصاعد معركة جدالية مع زوجته إلى انفصاله عنها .. انتهى به تفكير طويل إلى اتخاذ قرار مصيري بألا يتزوج ثانية، وأن يعوّض أبوته الغائبة بالامتثال إلى الحكمة الشهيرة من فيلم" :lion لا شيء مميز في إنجاب طفلك الخاص وزيادة عدد البشر، بينما من المميز أن تنقذ حياة طفل وُلد بالفعل" .. كان يؤمن بمعناها من قبل أن يعرف كلماتها، حتى وهو في ذروة الألم من عجزه عن الإنجاب .. هكذا راح يسعى وراء الحصول على طفل وُلد بالفعل كي ينقذ حياته .. بعد فترة كبيرة وجهد شاق أصبح في بيته طفل بلا عائلة .. حصل عليه مغلفًا بالامتنان لعدم التورط في جريمة ولادته .. ظل يعتني بهذا الطفل على نحو مثالي .. كان يعرف تمامًا ما الذي ينبغي أن تكون عليه المراعاة النموذجية للأطفال، وكيف ينشأون بصورة سليمة وصحية .. في أثناء ذلك التفاني الذي لم يجرحه اختلال عابر استمر في كتابة القصص القصيرة، بينما الطفل يواصل النمو إلى أن جاءت اللحظة التي شعر فيها بمساحة صمت ثقيلة تتمدد بشكل متسارع بينهما .. كانت هذه المساحة مقترنة أيضًا بشيء من ضعف الهمّة بدأ يتنامى داخله .. خمود تدريجي مبهم لذلك الشغف الذي كان ينطوي عليه كل ما يقوم به تجاه الطفل .. أصبح ثمة حاجز غير مفهوم يمنعه من الاستمرار في تجهيز الطفل للمستقبل بالتزامن مع إدراكه بأن هذا النمو يتمادى في غفلة منه

.. هذا ما جعله يستبدل رغمًا عنه المراعاة التي لم يُقصّر في أدائها بكتابة قصص أكثر عن تأملاته المتحسّرة لكل ما يطرأ على الطفل من تغيرات بعيدة عن مقاصده، ولا يقدر على تعطيلها .. القصص التي تشتمل بالتأكيد أيضًا على زوجته التي تجلس أمامه الآن في حجرة المعيشة بجوار الطفل، وبالطبع على ذلك الخط الدموي الداكن الذي لا يزال واضحًا فوق خصيتيه.

خبرة اللعب

كان غريبًا ألا ينسحب بالرغم من أنه لم يكن لديه أي فرصة للفوز .. معظم فيشاته كانت "محبوسة"، وإعلان مكسبي مسألة وقت لا أكثر، لكنه واصل اللعب دون إبطاء كأنه لا يعرف أنه لا أمل له .. كانت طريقة لعبه تدل على كونه مبتدئًا، وهو ما بدا متوافقًا مع النقاط القليلة التي جمعها من أدواره السابقة .. فكرت في أنه تعلّم اللعبة منذ مدة قصيرة، ولهذا فإن عدم انسحابه ليس راجعًا إلى عناد أخرق بل إلى واجب يدرك أن عليه الالتزام به .. إلى ضرورة لا يجادلها عادة غير البارعين في اللعب بأن يستسلم للانتظار حتى النهاية .. كان يبدو كأنه مكلف باستكمال الدور طالما بدأه حتى لو لم تكن خسارته محل شك.

تخيلته رجلًا في منتصف العمر، يعمل موظفًا بمؤسسة حكومية، ويجلس الآن ممسكًا بهاتفه المحمول داخل حجرة المعيشة بمنزله، وفي وضعية توحي بصورة ما بأنه ضيف على المكان، بالرغم من البيجاما التي يرتديها، وزوجته التي تجلس بالقرب منه تتابع دراما تليفزيونية، وأطفاله المنهمكين حولهما في مشاغل مختلفة بين المذاكرة واللعب .. ربما كان له صديقان، أو ثلاثة على الأكثر، يعتبرهم كذلك فقط احترامًا للذكريات، ولا يلتقي بهم إلا في مواعيد متباعدة، مثلما يفعل مع أقاربه القليلين، وفي الأغلب لا يخرج من البيت مساءً إلا لقضاء غرض منزلي، حينئذ يحقق أمنيته في "التمشية"، دون أن تستفرد به أشباحها كمقامرة خالصة .. ربما يختزن هاتفه صورًا لنساء جميلات لا يعرف أسماءهن، ومشاهد ساحرة لا يميّز أي مدن تنتمي إليها،

وأغان قديمة يسمعها حين يكون بمفرده كي لا يرى أحد عينيه وقتها .. ربما أراد طوال عمره اقتناء قطة، لكن خوفه من موتها وهو لا يزال حيًا حرمه من ذلك .. ربما لا يزال يراقب الطيور في السماء، ويمد كفيه لاحتواء قطرات المطر، ويعيد قراءة القصص المصوّرة الكلاسيكية التي يحتفظ بها منذ زمن طويل .. ربما يخبّئ عن زوجته وأطفاله سيجارة واحدة يستعيرها كل فترة وأخرى من أحد زملائه في العمل حتى يدخنها عندما يتركونه وحده مؤقتًا بالبيت .. ربما زرع بعض النباتات ـ من بينها الريحان مثلًا ـ أملًا في استنساخ شرفة طفولته .. ربما لا يزال يتأمل وجهه في المرآة، ويحلم في نومه الشاحب بأماكنه المهجورة وقد استردت الماضي في ألفته الأشد وطأة، كما يتلصص على الظلال المنكمشة التي تتبدد سريعًا في شقوق الفراغ .. تخيلت طبيعة ذاهلة لنظرته، كأنما يتطلع دائمًا إلى كل شيء رآه مرارًا من قبل للمرة الأولى.

في اليوم التالي بحثت عنه حتى وجدته وبدأنا اللعب .. لم يتبدّل مسار الدور عن الأمس، لكنني قررت اختبار رد فعله تجاه مضايقة تقليدية .. تعمدت التأخّر في رمي النرد كل مرة إلى الثانية الأخيرة من الزمن المحدد .. يفترض أن يفتت هذا تماسك أكثر اللاعبين قدرة على الصبر، خاصة لو كانت هزيمتهم مؤكدة .. مع ذلك استمر في الدور، بل ولم يرد عدائيتي في اللعب بتأخّر مماثل، وظل محتفظًا بإيقاعه السريع حتى الحركة الختامية.

لهذا تغيّر الأمر .. أصبحت لا أدخل اللعبة إلا من أجله .. لكي أرمي النرد دون تأخّر، وأحرّك الفيشات بطريقة سيئة حتى يفوز .. أصبحت أفعل هذا كل يوم حتى يكون سعيدًا للحظات .. حتى أطلب لروحي السلام من داخل قبري.

نجمة واحدة وريڤيو بلا قلب

صديقنا العزيز

نرجو منك أن تقوم بنشر المقالات النقدية التي كتبتها عن أعمالنا الأخيرة على موقع جودريدز .. نعرف جيدًا أنك توقفت منذ زمن طويل عن زيارة "قوّاد الكتب" هذا ـ كما تسميه ـ خاصة بعدما أشرت في سياق الحديث عن "نقد استجابة القارئ العربي"* إلى استنفاذ غرضك البحثي من استخدامه، لكننا في الوقت نفسه لا نعتقد أن إعادة نشر تلك المقالات من أجلنا سيمثل مشكلة كبيرة بالنسبة لك .. نرجو أيضًا ألا تتوقف كثيرًا أمام الخدوش الصغيرة التي عادة ما تتسلل إلى حفلات التمجيد، ونعني بذلك الريڤيوهات المهينة والساخرة التي دوّنها بعض القراء وسط المراجعات الاحتفائية لكتبنا .. أنت تعلم أنه أمر عادي جدًا، ويمكن لأي أحد أن يطالع ما كتبه بعضهم عن أعمال كافكا وساراماجو وموراكامي مثلًا حتي يتأكد من هذا .. وبالرغم من أن تهكم هؤلاء يمتد أحيانًا إلى الجوائز التي حصلنا عليها سواء كانت جائزة الدولة، أو جائزة ساويرس، أو حتى الوصول إلى قوائم البوكر، وبالرغم أيضًا من أن تدويناتهم تُظهر معرفة بالنكات الشهيرة في الوسط الأدبي كالتي تدور حول "لص ماركيز"، أو "بكّاء الجوائز"، أو "روائي الهابي إندينج"؛ فإننا لن نفقد أبدًا إيماننا بأن القراء هم الذين يمنحون أعمالنا قيمتها حتى لو كان بينهم تافه أو حاقد أو ابن لبوة لا تساوي حياته أكثر من نجمة واحدة وريڤيو بلا قلب.

خالص تحياتنا.

***"نقد استجابة القارئ العربي ـ مقدمة في جينالوجيا التأويل" كتاب لممدوح رزق، صدر عن دار ميتا 2019**

المقطوعة الأخيرة

يموت الآن .. يعرف ذلك جيدًا، لكنه ليس إلا الإدراك النشوان الذي تعوّده حينما يوشك على الانتهاء من مقطوعة موسيقية، وقد بلغ ذروته الخالصة .. كان ما يختبره هو المقطوعة الختامية التي تحتوي عمره كاملًا بينما تنهيه .. لذا فهي نشوة تتجسّد في بدنه المفتت بصورة أكثر سحرًا، وكأن رعبه الدائم من الموت الذي تغذّى على حياته كلها كان تمهيدًا طويلًا خاطفًا لتلك الطمأنينة الخارقة التي تُخرجه من الحياة.

لم يكن تعمّده إصابة نفسه بكورونا انتحارًا خفيًا، بل انسجامًا مع الإبادة كحقيقة ماورائية للعالم .. حينما ظهر الفيروس لم يفكر في مؤامرة من أي نوع، وإنما على العكس كان يؤمن أن لخالقه هدفًا محددًا وواضحًا .. أن يتألم ويحتضر ويموت بشر كثيرون جدًا في كل مكان بأداة من صنعه .. أن يستمتع خالق الفيروس بمشاهدة هذا لحظة بعد أخرى، كمن يتجوّل بين أشلاء الأسباب المتنكرة للحروب، والدوافع الملفقة للقتل .. كمن يحلّق في نقاء الإرادة الكونية، حيث يتحقق التناغم معها بقدر الاستجابة لمقصدها المتجذّر داخلك .. أن تعذِّب وتميت فحسب، لاسيّما من خلف ستار محصّن، بصرف النظر عن علة ذلك .. كان كورونا هو الاستجابة القصوى.

لم تكن النشوة فقط هي الناجمة عن الموسيقى التي يؤلفها، وإنما الحسرة كذلك .. كان دائمًا يعتبر مقطوعاته ـ رغم كل وحشيتها ـ أشبه بترويض قهري لما تستحقه الدنيا، وما يلائم وعيه بالوجود .. أشبه بإخضاع محتوم لذاكرته .. لم يكن قادرًا رغم محاولاته المستمرة أن يجعل تلك

الموسيقى لائقة بأفكاره ومشاعره تجاه كل شيء، كأنها لعنة منذورة لمغافلته مهما فعل .. وصل به الأمر إلى نوبات من عدم التصديق: بعد كل ما حدث؛ كيف يكتفي بتأليف الموسيقى أصلًا؟! .. كان هذا العجز المتصاعد هو الجرح المستقر في عمق كل نشوة.

موته الآن ليس تقليديًا، بل هو الموت الجمالي المنشود الذي طالما انتظره .. المقطوعة التي قضى ماضيه بأكمله يحلم بها، ويعرف في هذه اللحظات أنه كان يتجهّز لتحقيقها: الصداع الفائر.. السعال الذي يمزق الرئتين.. الأنفاس اللاهثة.. دقات القلب المتلاحقة .. العرق الغزيز .. الرعشات القوية .. الضباب الثقيل في العينين .. الألم الذي يطحن العظام .. الانتفاضات الحارقة في الأمعاء .. جميعها ليست علامات الاحتضار بقدر ما هي نغمات وإيقاعات المقطوعة الأخيرة التي ينظّمها في عقله، ولا يسمعها أحد غيره.. لا يستوعبها إلا غيابه الموشك على الاكتمال .. لكنه ينتبه فجأة إلى أن هذه المقطوعة ستتبدد معه .. لن تبقى بعد موته بالرغم من رجائه أن تكون هي التذكير الوحيد به .. كان في احتضاره مكان صغير لضحكة بالغة الخفوت، وكأنها كانت النغمة الضرورية الناقصة قبل النهاية.

وجه الحائط

ثمة لحظة يمكن أن يشبه فيها وجه المرء تلك المساحة الصغيرة التي ينظر إليها في الحائط، والأشبه بدائرة محددة بخط وهمي، غير منتظم .. اللحظة التي يكون متيقنًا خلالها أن هذه النظرة الصامتة هي آخر ما يملك أن يفعله في الحياة .. حينها؛ ستكون تلك المساحة الصغيرة في الحائط هي وجهك الأكثر أصالة، الذي لن تفقد ذاكرتك ملامحه بمجرد إغماض عينيك .. لن يمكن للأنفاس والنظرات والكلمات التي تتساقط من هذا الوجه أن تتنكر في وجود آخر، بل ستظل محتفظة بطبيعتها كفضلات قسرية، مجهولة المنشأ .. ستكون هذه الدائرة هي الوجه الذي لن يفنى بعد موتك حتى لو تحوّل الحائط إلى ذرات غبار متلاشية .. ربما خاصة لو كانت ملامحك لشخص يعجز عن تصديق ما أهدره خلال سنوات طويلة، ولا يعرف كيف يمكنه التعويض فيما تبقى من ثوان قليلة، ليست مضمونة حتمًا .. ربما خاصة لو كانت الأحلام التي ترجو استدراك الماضي من أجلها قد تبددت بالفعل.

عندما يصل المرء إلى تلك النظرة سيصبح منطقيًا حقًا أن تحل تلك المساحة الصغيرة في الحائط موضع وجهه داخل الصور الفوتوغرافية في البراويز والألبومات وبطاقات الهوية .. لن يكون غريبًا على الإطلاق لو استهدفتها القبلات والصفعات والأقنعة .. سيصير بديهيًا أن يكتب غريب لم

يراوده أدنى شك في كونه يعرفك جيدًا حكاية ما عن حياتك المنتهية تبدأ بـ "استيقظ من النوم ثم غسل الدائرة المحددة بخط وهمي غير منتظم"، وفي منتصفها: "لم يعد بوسعه سوى التضرع إلى السماء بتلك المساحة الصغيرة الخاشعة على الحائط"، ثم يختتم الحكاية: "وحينئذ أشرقت الدائرة التي ظل ينظر إليها طويلًا بسعادة كاملة".

قطع غيار مستعملة

في منتصف المسافة بين مكان أجهله، وبيت أعيش فيه مع زوجتي وطفلتي؛ قررت أمي أن نتوقف حتى تعطيني كل ما كانت تحمله، بالرغم من أن ما بين يديّ كان ثقيلًا بما فيه الكفاية .. كان صديق طفولتي الذي حاولت قتله مرارًا يرافقنا دون أن يتكلم أو يحمل أي شيء، فقط يبتسم طوال الوقت بسماجة هادئة، كأنه يتابع في ثقة لامبالية مشهدًا رآه كثيرًا من قبل .. أخبرت أمي بأنني لن أقدر، لكنها أصرت أن تضيف لحمولتي جميع الأشياء التي كانت معها، وأن تسبقني بصحبة صديقي ملتذة بخفتها .. راقبتهما وهما يبتعدان في الطريق المؤدي إلى منزلي، بينما أحاول التحرّك ورائهما بتلك الأثقال الأشبه بقطع غيار مستعملة لماكينات قديمة لا أعرف ماهيتها.

استغرق وصولي أيامًا طويلة، تفتت خلالها جسدي، وتمزقت ملابسي، وتراكمت الأوساخ داخل جروحي العارية .. ظل العابرون وأهل الشوارع يتفحصونني بذهول ساخر وأنا أجر قدميّ الحافيتين، في حين بقي كل ما كنت أحمله محتفظًا بسلامته من الخدش أو النقصان .. تصاعدت ارتجافاتي أثناء اجتياز السلالم درجة بعد أخرى حتى بلغت باب الشقة بأنفاس شبه معدومة، وعينين ضبابيتين، ووعي متخاذل، على وشك الفقدان .. وجدت أمي جالسة مع زوجتي في سكينة ونقاء كما يليق بشخص تخلّص من أثقاله، واستقر منذ وقت بعيد في مكان آمن .. ألقيت بحمولتي على الأرض، ورحت أصرخ في وجه أمي، وأشتمها بأبويها، ساردًا لزوجتي ما فعلته بي .. ظلت أمي جالسة بفم مطبق، وملامح شاردة، ونظرة أقرب لنصف إغماضة يتجمد الاستسلام داخلها

.. حاولت زوجتي تهدئتي لكنها لم تنجح .. فجأة انتبهت إلى أن الأرض قد أصبحت خالية من الأشياء المبهمة التي ألقيتها منذ لحظات، وحينما التفت مجددًا لأمي وجدت إغماضتها قد اكتملت، ورأسها مُلقى فوق مسند الكرسي، وصدرها هامدًا تمامًا .. نظرت إلى زوجتي، وسألتها في هلع عن طفلتي فقالت بصوت مرتعش أن صديق طفولتي قد اصطحبها للتنزه.

كورونا في مكان آخر

لن تدرك الزمن الذي أهدرته حقًا إلا حينما يصبح الموت أقرب من خطوة واحدة صغيرة، وليس مجرد احتمال ضروري، متناثر في الأشياء كافة .. يأس الماضي حينئذ سيكون في جوهره رجاءً شاحبًا، ذلك لأن هذه اللحظة هي موعدك مع اليأس الفعلي، في كامل نقائه .. محاولاتك المرجأة لاستدراك ما لا يمكن تصحيحه، وتعويض ما لا يمكن استعادته؛ كلها ستنتفض فجأة لتبدأ في قضم روحك بشكل متزامن، كمن ظل يربي أشباحًا في جسده أطول مما يجب دون أن يطلقها.

لم أخرج من بيتي منذ الإعلان عن اكتشاف الحالة الأولى المصابة بفيروس كورونا .. أعني بذلك أنني توقفت عن الزيارة الأسبوعية لشقيقتي الكبرى المقيمة وحدها في منزل العائلة، والتي كان يعقبها عادة المرور على بائع الجرائد، ومكتبة هيئة الكتاب ثم عدم الاستجابة لرغبة بائسة ومعتادة في تناول فنجان قهوة بأحد المقاهي التي أمر عليها في طريق عودتتي إلى البيت .. كنت حينئذ أعمل على كتاب جديد عن "شوبنهاور"، بجانب متوالية قصصية، ومراجعة مخطوط دراستي عن الأصل الواقعي لرواية "القضية الغريبة لدكتور جيكل ومستر هايد".. بعد أيام قليلة، ومع تزايد عدد الإصابات، واستمرار خروج زوجتي من المنزل ـ مصطحبة طفلتي بالطبع ـ للاعتناء بأمها المريضة، وقضاء احتياجاتها؛ توقفت عن كل ما كنت أكتبه، بما في ذلك المقال الأسبوعي من "سيرة الاختباء"؛ إذ أصبح تحليل التاريخ الشخصي داخل ما يُسمّى بـ "الحياة الأدبية" طقسًا أكثر مسالمة مما يحتمل الخطر

المتفاقم، حتى لو كان منطويًا بصورة أساسية على تصفية الحسابات القديمة .. قررت التفرّغ لاستكمال "وصية كلنكسر" في أسرع وقت ممكن، والبدء أيضًا في ورشتي القصصية الجديدة .. هذا فقط ما كان بوسعي القيام به على نحو عاجل من ضمن تدابير عدة كنت أتمنى أن تنتهي حياتي داخل أحلامها السرية.

لم يكن بمقدوري منع زوجتي من الذهاب لأمها، كما لم أستطع أن أطلب منها الإقامة برفقتها، لأن ذلك كان سيُبعد طفلتي عني .. كان وجها زوجتي وطفلتي قد تحوّلا، كما يشيع في الكوميكس المعاصر، إلى مجسّمين للفيروس وهما يعبران يومًا بعد آخر باب الشقة أمام عينيّ، بينما أجلس في مواجهة شاشة اللابتوب، أكتب سطورًا متلاحقة من النوفيلا التي عليها أن تُغني بصورة حاسمة عن كل انتقام لم أنفّذه، أو أراجع مشروعًا قصصيًا لأحد طلاب الورشة التي أردتها ككل مرة، وعبر القصص المستقبلية لأعضائها، أن تكون بعد اختفائي عودًا أبديًا لذاكرتي .. الذاكرة التي يمكن تلخيصها الآن في شهوانية ذابحة أعيد بها مشاهدة التسجيل المصوّر لممرضة في مستشفى العزل بالمدينة التي أسكنها، وهى تشرح كيف ترتدي زي الوقاية المعقّم قطعة بعد أخرى.

مجرد وقت

كان يمكن لهذا الوقت أن يكون مساءً بالفعل لو لم يكن سوى أثر متغيّر لأحلام الذاكرة .. كان يمكن لهذا الصمت أن يكون وحدة حقًا لو أنك انتهيت من قطع الخيوط النارية المربوطة في أصابع الدُمى التي تُحرّك موتك .. لكنه مجرد وقت، حيث يمعن الزمن في الانتهاء من قبل أن يبدأ .. مجرد صمت، حيث تتلاشى قدرة روحك على نبش القبر الذي لم تغادره الحياة مطلقًا.

ليس لقلبي دقات، بل ريح ممسوسة بشبق مناقض؛ فهي لا تزيح الحوائط، وإنما بوحشيتها الأكثر نعومة تشيّدها في كل فراغ يمضغ ظلامه البصر .. كأن الحوائط إيماءات الفناء المتراكمة في القلب .. لذا يخبّئ "الخوف" ميوعته المنتشية من أجنحة الغيب السوداء الكثيفة التي تحوم في عماء اللغة.

هل الأفكار هي ما يشكّل جثتي، أم الغياب المستقر في أغوارها؟ .. ما أريد كتابته، أم ما أريد الاستسلام له؟ .. البقاء مستيقظًا، أم قضاء اللحظات الأخيرة في نوم متنقل ببن أطياف الماضي؟.

ثلاث وأربعون .. لا يعرف شيئًا عن هذا الرقم الذي يشير لسنوات عمره أكثر من شعور جذري، متزايد الثقل والحدة بتجويف صغير لندبة منفصلة عن ملامح غامضة، وملقاة في قاع معتم، فائضة بقذارة لا تنجم إلا عن وجود مجهول لم يتحقق .. ندبة كانت ترجو لو تمكنت من الحركة في

القاع، كما لو أنها في عمق نهر مثلًا، لكنها فقط صورة متكررة وراء الزجاج نفسه.

ثمة ثقوب في كل كلمة أكتبها .. ثقوب لانهائية يمر منها ما لا يمكنني كتابته نحو الكلمة التالية .. نحو القصة التالية .. نحو خطوة أخرى في الخرائب الضبابية بعيدًا عن رأسي المقطوع.

بندقية تشيخوف

ما الذي جعلك كشخص توقف منذ فترة طويلة عن الخروج من بيته تحتفظ على هاتفك المحمول، الفارغ من شريحة الاتصال، بمقطع فيديو لرجل يمسك ببندقية، ويطلق النار على السائرين في نفس المدينة التي تعيش فيها؟ .. مقطع لا يتجاوز ثواني قليلة، تم تصويره بكاميرا هاتف محمول، تمسك به يد مرتعشة من نافذة بعيدة إلى حد ما، تقع وراء ظهر الرجل المتحرك للأمام بخطوات متمهلة، يتخللها توقفات قصيرة بحسب لحظات التبادل بين تجهيز البندقية وإطلاق النار .. لم يظهر خلال تلك الثواني وجه الرجل، كما لم تلتقط الكاميرا إصابة أحد من المارة الذين ترك فرارهم السريع خلاءًا ثابتًا حول حركته، قبل أن تسقطه رصاصة أطلقها فيما يبدو فرد من الشرطة على إحدى قدميه، الأمر الذي أتاح للسائرين الاندفاع فورًا تجاهه ثم الانقضاض على جسده المُلقى في منتصف الشارع بجوار بندقيته .. لماذا لم تهتم بالحصول على معلومات تفسيرية لهذا المقطع المنشور على شبكة الإنترنت تتجاوز تعريفك الخاص: رجل يطلق النار على المارة في أحد شوارع المدينة التي يسكنها شخص توقف منذ فترة طويلة عن الخروج من بيته؟ .. لا تعيد مشاهدة هذا المقطع كل يوم، وإنما فقط بعدما تستيقظ من أحد الأحلام المتباعدة التي تعيش خلالها لحظات تعذيبية من الماضي، ليس كما تتذكره، وإنما كما حدث في أصالته السحرية المخبوءة .. لماذا تشاهد هذا المقطع حينئذ، كأنما تتفحص ظلًا مستقرًا داخل صور ألبوم قديم، حيث وجوه توزعت ابتساماتها الغافلة في أماكن عدة من ذكريات المدينة؟ .. الذكريات التي حينما لم تستطع أن تخلق بدايتها الغامضة على نحو آخر، أو على الأقل أن تضمن لها البقاء كما كانت؛

قررت أن تقضي ما تبقى من حياتك في نسج دعابات هازئة حول غيابها .. لماذا ترتسم دائمًا تلك الابتسامة الممتنة في روحك كلما شاهدت هذا المقطع؟ .. أنت تعرف الإجابة جيدًا، مثلما تعرف أن بندقيتك في بقائها معلقة فوق الحائط لن تدفع أحدًا لمحاولة تعطيلها.

العضو المقطوع

لم تمر أيام قليلة على وصولي إلى هذه القرية الصغيرة التي يكاد البحر أن يخبئها حتى بدأ شبح المرأة الغامضة في مطاردتي .. ظلال متناثرة، بالغة الشحوب، رسمتها كلمات الأهالي في الطرقات والمقاهي والمطاعم لتلك العجوز المجهولة، التي قدمت منذ شهور إلى قريتهم، كي تسكن وحدها في بيت قديم من طابقين، يكاد يكون معزولًا .. بحسب الإشارات القاصرة، والحذرة دون سبب مؤكد؛ عرفت أن هذه المرأة لم تتحدث مع أحد من أبناء القرية طوال تلك الشهور إلا في المرات المتباعدة التي تقصد خلالها المتاجر لشراء احتياجاتها الأساسية، وبحرص على ألا تترك مساحة كلامية مهما كانت ضآلتها لما يتجاوز ذلك الغرض .. مع هذا لم يكن في سلوكها ما يثير النفور أو الارتياب، بل كانت تتسم في ظهورها النادر بما يتلائم عادة مع امرأة في عمرها، ومع الاقتضاب المعهود لحديثها مع البائعين؛ كان يستقر في صوتها نبرة لطفٍ رصينة، تغري أيضًا بتفسيرها كاعتياد متزن على منح الاحترام لمن تخاطبه .. لكن ما كان عدائيًا حقًا، بل ومخيفًا عند البعض هو عدم إدراك التاريخ الذي قاد خطوات تلك العجوز إليهم: عائلتها .. المكان الذي عاشت فيه من قبل، ولماذا غادرته .. الدافع لاختيار قريتهم تحديدًا كي تأتي إليها .. كان العجز الشامل أمام وجودها الملتبس أشبه بظلام يزداد هيمنة وحلكة داخل أرواحهم مع تعاقب الأيام، الأمر الذي خلق احتياجًا عفويًا للصمت .. لإجبار النفس على عدم استدعاء معلن لسيرة تلك المرأة، ولو بأقل الكلمات وأبسطها .. كأن ذلك فقط ما أتيح لهم من المحاولات الجماعية الممكنة لقبول وجودها في قريتهم دون استفزاز الهواجس .. لكن الصمت إذا ما تم خدشه على نحو مفاجئ

ـ وهو ما كان يحدث بالطبع ـ فإنه حينئذ ينفجر بالتخيلات المختزنة التي لم يخمد مطلقًا نشاطها المكتوم: زوجة رجل سياسي، يشغل منصبًا مرموقًا في مدينة بعيدة، جاءت إلى هنا هربًا من ملاحقة أذرعه الباطشة .. متهمة بجريمة قتل، لجأت إلى الاختباء داخل بقعة منزوية كهذه، لن تخطر في ذهن أحد من مطارديها .. ساحرة شيطانية، متمرّسة في الأعمال السفلية، قررت الاحتماء داخل هذه القرية من المنذورين للانتقام من لعنة سوداء غرستها في بلد آخر .. التخيلات التي تكافح للحصول على حقيقة عجزت عن الوصول إليها مفردات الواقع، وكان في توالدها نوع من التعويض لبطولة مرجأة.

ضرورة ملغزة، تتخطى الفضول المنطقي، تلك التي ذهبت بي إلى بيت العجوز .. كنت أشعر بأن العلة الخفية وراء حضورها إلى القرية هي نفسها التي جذبتني إلى حيث تسكن في تلك المنطقة النائية، غير البعيدة عن الشاطئ .. اكتشفت أن للبيت حديقة صغيرة، يحاوطها سور غير مرتفع، وبينما كنت أبطئ من خطواتي أثناء المرور أمام بابها المفتوح؛ وجدت المرأة جالسة تحت أغصان شجرة كثيفة، وأمامها طاولة خشبية، وكرسي آخر يماثل ذلك الذي تجلس عليه، كما كان بين يديها فنجان شاي من النمط الكلاسيكي .. ليست الابتسامة المباغتة التي أضاءت وجهها الخمري هي التي أوقفت خطواتي .. شيء لا أفهمه، مناقضًا لإرادتي المسبقة هو من فعل ذلك .. ابتسامة العجوز بدت كرد فعل مجهّز لوقوفي أمام باب حديقتها...

ـ تفضّل...

صوتها أيضًا كان يمرر إيحاءًا غريبًا بأنها كانت تتوقع وصولي إليها .. كان صوتًا خفيضًا، لكنه غير مهتز، بل بدا كأن خفوته الناعم مكللًا بذكرى ما كان يتصف به من خليط أخّاذ بين الصلابة الدافئة والرقة المتيقظة .. وجدت نفسي جالسًا أمامها، أتأمل ملامحها مقارنًا بين الوداعة المرحّبة التي تكسو تجاعيدها غير المترهلة كليًا، وما نسجته كلمات الأهالي وتخيلاتهم عن غموضها .. كانت تغطي شعرها بإيشارب أحمر، مطرّزًا بزهور صفراء ضئيلة، يلتف حول رأسها دون أن يتدلى طرف له، سامحًا للقليل من الشعيرات البيضاء أن تتجاوز حافته أعلى أذنيها الصغيرتين الخاليتين من الأقراط .. لم أتمكن من الاعتماد على غضونها المتورّدة في تحديد عمرها ولو بشكل تقريبي، ومع ذلك ثمة حيوية شابة كانت تشع بكيفية مبهمة من عمق عينيها السوداوين، المخططتين بكحل خفيف، تحت حاجبين رفيعين للغاية، يكادا يكونان نقيين من الشيب، وكذلك من أغوار ملامحها، خاصة شفتيها الممتلئتين، القانيتين من دون طلاء .. كانت الطريقة التي يلتف بها الإيشارب حول شعرها قد أعطتني انطباعًا ما بأنه طويل، فضلًا عن نعومته التي أظهرتها الشعيرات القليلة ...

ـ أعرف جيدًا أنني أسبب قلقًا كبيرًا لسكان القرية منذ وصولي إليها، كل هذا لمجرد أنني أردت الحفاظ على عزلتي .. ألا ترى أن معي حق في ذلك؟

ـ بالطبع...

ـ لم أرغب في أن يعرف الآخرون عني شيئًا؛ فحياتي السابقة مهما كانت خالية من الأحداث الجديرة بالاهتمام، فإن هذا لن ينجح في إيقاف الغرباء عن التوغل إليها.

ـ لماذا قمت بدعوتي إذن للجلوس معكِ

ـ لأنني أعرفك .. أقصد أنه بالرغم من البقاء وحدي طوال الوقت في هذا البيت إلا أنني تأكدت منذ قدومك إلى القرية أنك شخص يمكن الاعتماد عليه في تبديد الانزعاج العام من وجودي.

ـ هل تقصدين أن أنقل رسالة طمأنينة معينة إلى الناس بشأنك؟

ـ ولم لا؟ .. لكنها ليست رسالة بالمعنى المباشر .. يمكنك مثلا أن تحكي لكل من تعرفه أنك قابلتني وتحدثت معي في أمور عادية، وأنك وجدتني امرأة طبيعية للغاية، لا تريد سوى أن تقضي أيامها الأخيرة في هدوء، ودون تطفل من أحد.

ـ ليس عندي مانع .. لكن هذا يستدعي أن أعرفك أولًا .. أن أحصل على مبرر للثقة فيما قلتيه عن نفسك .. أريد أن أكون صادقًا عندما أخبر الناس بذلك.

ـ ماذا تريد أن تعرف؟

ـ لا شيء أكثر مما ترغبين الآن في أن تخبريني به.

ـ حسنًا .. لكن عليك أن تعدني بأن كل ما سأقوله لك سيبقى سرًا بيننا.

ـ بالتأكيد...

ـ منذ خمسة عشر عامًا كنت أعيش وحدي مثلما هو الحال الآن، ولكن في مدينة كبيرة، وكنت أعمل أستاذة للنقد الأدبي .. لم أتزوج، ولكنني كنت أحب روائيًا يصغرني بأكثر من عشرين سنة .. لم يكن بالنسبة لي الحياة نفسها فقط بل كان ذاكرتي وما قبلها أيضًا .. العالم الذي يسبق حضوري، والزمن الذي سيمتد بعد موت الجميع .. كان بالنسبة لي هو الغيب ذاته .. وبالرغم من أننا لم نتمكن من الزواج إلا أننا عشنا سنوات طويلة كزوجين أو كحبيبين لا يذاع لهما سر.

ـ ولكن ...

ـ ولكن للأسف الشديد حدث ذات يوم ما تسبب في انهيار كل شيء .. أقامت الجامعة التي أعمل بها مؤتمرًا حول الرواية، وكان مخصصًا لي إدارة مائدة مستديرة عن الفانتازيا .. كان حبيبي الروائي من ضمن الكتّاب والنقاد المدعوين للنقاش، وبينما كنت أخاطب الجالسين حول المائدة فوجئت به يقاطعني بملاحظة أجبرتني على التوقف عن الكلام .. كانت ملاحظة عادية، خاطفة، لا تستهدف سوءًا تجاهي على الإطلاق، بالعكس؛ كانت تقصد المساهمة بإضافة صغيرة تدعم ما أقوله .. مع ذلك شعرت بألم مجهول، لم أعهده أبدًا من قبل، راح ينمو كلعنة غير مفهومة ملتهمًا نفسي لحظة بعد أخرى طوال ما تبقى من وقت المناقشة، وعلى مدار الثواني والدقائق والساعات والأيام التالية .. كان الأمر أشبه بطغيان غير مرئي لنار سوداء، ظلت تتمطى داخل جروحي الخفية .. ندوب قديمة كشف الاحتراق بصورة مفاجئة عن وجودها دون انقطاع، لكنه لم يفسرها، بل أظهرها فحسب، كأثر غير متوقع للهب ضئيل، لم يكن ليخدش جسدي في حياة أخرى .. رغمًا عني؛ أصبح

تاريخنا حلمًا يُعاد عكسيًا بدءًا من لحظته الأخيرة بشكل مناقض لما كان عليه، وبالتالي لم يعد هناك ما يسمح باستمراره .. صدقني؛ حاولت بقدر ما أستطيع أن أتحرر من ذلك الألم الذي نتج عن تلك الواقعة الهيّنة، التي لا تضمر أدنى نوايا الشر، لكنني لم أنجح في ذلك، وبالفعل استطاعت هذه اللعنة أن تجبرني على الابتعاد بتدرّج متسارع كالذبح عن حبيبي الروائي .. هل يمكنك أن تتصوّر أن يؤدي تعليق مساند، تخلل حديثي في نقاش عام بطريقة مباغتة إلى نهاية ما كنت اعتبره نصًا مقدسًا، أو تعهدًا إلهيًا لن نتوقف عن كتابته، حتى ونحن متناثرين في الفناء؟

ـ كل شيء يمكن أن يحدث، ولأي سبب .. ماذا فعلتِ بعد انفصالكما؟

ـ كان حتميًا أن أودع كل شيء: بيتي .. وظيفتي .. أصدقائي ... كل ملامح الحياة التي لم يكن بوسعها أن تُشكّل وجهًا حقيقيًا إلا بتلك البراعة الشهوانية الناجمة عن توحدنا .. سنوات كثيرة، تنقلت خلالها بين مدن عديدة بحثًا عن مواساة مستحيلة، أو فقدان انتقائي للذاكرة، أو إفاقة خارقة مما أردت أن يكون مجرّد كابوس مروّع، طارئ رغم صلابته الدنيئة، ولكن هذا كان أشبه بالمعجزة التي يُستبعد أن تتوّج حياة الأنبياء حتى في خيال أكثر البشر إيمانًا.

ـ وماذا عن هذه القرية؟

ـ صدقًا لا أعرف .. مازلت مريضة بكل ما حكيته لك، ومازال المشهد الذي وضع حدًا قاصمًا لعلاقتي مع حبيبي الروائي يضمن احتضاري بالتباسه المذل؛ ومع ذلك شيء لم أفهمه جعلني أقرر البقاء هنا .. شيء لا علاقة له

بالمكان أو بسكانه، لكنه أعلن عن رسوخه داخل روحي فور مجيئي إلى هنا، وبمصارحة أكبر، فإنني لم أعد أرغب في تفسير هذا الشيء.

ـ ربما له علاقة بهذا البيت .. أعني طبيعة انعزاله، التي تجعله مختلفًا عن منازل منطوية على نفسها في مدن أخرى.

ـ هل تريد أن تشاهده من الداخل؟

ـ ليس عندي مانع.

تحركت وراء المرأة بتمهل عبر الممر الفاصل بين الحديقة وباب البيت الموارب .. كانت قامتها تميل إلى الطول والنحافة، وإن كان الروب السماوي السميك المغلق الذي ترتديه فوق جلباب أبيض قد صعّب من مهمة التعرّف على السمات المؤكدة لتفاصيلها الأنثوية .. كان عندي استعداد لقبول كل ما حكته لي، ولكنني لم أكن أريد تصديقها .. أعرف أحداثًا عجيبة، ترتب عليها نتائج أكثر عجبًا، وهذا ما لا يجعلني أستبعد أن يكون حديثها حقيقيًا، ورغم ذلك كان نتوء ما في أعماقي يريدها أن تكون كاذبة، وأن يكون كل ما قالته ستارًا لواقعة منطقية .. إلحاح ملغّز ـ رغم عدم رفض الواقعية المحتملة لما ذكرته ـ يريد أن يحوّله إلى مجاز لحدث آخر يمكن إدراكه تلقائيًا، حتى ولو بالنسبة للعجوز نفسها إذا كان قد حصل بالفعل.

كان الطابق الأول من البيت خاليًا مما يلفت الانتباه: قاعة استقبال ذات أثاث بسيط، قديم إلى حد ما، ومنظم، وثمة ردهة في نهايتها يبدو أنها تقود لحجرة نوم أو أكثر، وربما مطبخ وحمام كذلك، لكن ما كان جديرًا بالملاحظة هو فراغ الحوائط؛ إذ لم تكن هناك أي صور أو لوحات أو حتى نوع من

الزخارف الشائعة في البيوت التقليدية .. بدأت المرأة في صعود السلالم الخشبية المؤدية إلى الطابق الثاني دون أن تتكلم، ورغم ترددي العابر؛ اعتبرت هذا الصمت دعوة ضمنية لاتباعها من أجل استكمال المشاهدة، وكأنما كان في عدم بقائها طويلًا داخل الطابق الأرضي، وصعودها لأعلى بعد لحظات قليلة إقرارًا ضمنيًا آخر بأنه لا يوجد بالفعل في هذا الطابق ما يسترعي التوقف .. صعدت السلالم وراءها، والتي أفضت إلى ممر مفروش بسجادة زرقاء خفيفة ذات نقوش من الدوائر والمربعات الحمراء الداكنة، توجد في بدايته حجرة مفتوحة، دخلتها المرأة قائلة دون تلتفت لي:

ـ تفضل .. هذا مكاني المفضل في البيت.

كانت الحجرة فسيحة، ذات سقف عال، وبلاط أسود، ونافذة مفتوحة تغطيها ستارة من الحرير الأخضر، وعلى عكس الطابق الأول فقد كانت مزدحمة بأعداد كبيرة من الكتب، تحتويها مكتبة هائلة ممتدة بعرض ثلاثة جدران كاملة .. إلى جانب ذلك؛ كان هناك مكتب عريض تتكدس فوقه أوراق وملفات وحاويات أقلام بالإضافة إلى أباجورة متوسطة الحجم، وبعض الكتب أيضًا بجوار برواز صغير، يستند على حامل، ويحدق من داخله "جي دي موباسان" إلينا .. على الحائط الأبيض الواسع المقابل لهذا المكتب، والوحيد الذي لم تمتد إليه رفوف المكتبة الهائلة؛ لم يكن هناك سوى برواز ذهبي معلق في المنتصف تقريبًا، ولكنه ليس مغلقًا بلوح زجاجي يُظهر صورة أو لوحة كما هو معتاد، وإنما كان بروازًا فارغًا تتدلى من ضلعه العلوي ما يشبه سلسلة مفاتيح، مثبّت في حلقتها شيء صغير لم أتبينه من مكاني في مدخل الحجرة .. دون دعوة منها وجدت خطواتي تتحرّك لتبين هذا الشيء الصغير، وحينما

أدركت ما هو شعرت بفوران محتدم لأنصال مسنونة تفجّر فجأة في دمائي .. فوران امتد من دوار رأسي، مرورًا بدقات قلبي القوية والمتلاحقة، وعبر أنفاسي الثقيلة التي كاد تحجّرها يمزق صدري، وحتى النغزة الحادة بين فخذيّ .. رأيت عضوًا ذكريًا مقطوعًا معلقًا في البرواز .. سمعت المرأة من ورائي تضحك .. لم تكن ضحكة وحشية متوقعة كالتي تطلقها الساحرات الشريرات في الدراما، وإنما كانت ضحكة خافتة أشبه بتلك التي تترقرق بين شفتي أم حنون متحسرة، لم تعد تتمتع بالطاقة الكافية لتجسيد عاطفتها المتقدة تجاه ابنها .. مع ذلك التفت إليها بهلع كأنني أعيش اللحظة الأخيرة التي تمررني للموت:

ـ هذا ما تبقى من حبيبي الروائي .. لم يكن يجب أن أتركه بلا شك .. ما رأيك؟

ـ أعتقد أنه يجب أن أغادر الآن...

ـ كما تحب .. لكن لا تنسى الوعد.

ـ بالطبع ...

لا أعرف كيف انبعثت الكلمات من فمي .. لا أعرف كيف تحركت قدميّ خروجًا من الحجرة، ونزولًا للسلالم ثم عبورًا لباب البيت واجتيازًا للحديقة وصولًا إلى الطريق المؤدي نحو الشاطئ .. ظل جسدي يرتعش منتفضًا كأنما الأنصال المسنونة قد حوّلت دمائي لكهرباء سائلة تتدفق مسعورة وراء جلدي .. مع ذلك كان ثمة إحساس بعدم الندم تجاه هذه الزيارة محتفظًا بصموده .. رسالة طمأنينة؟ .. لم أستغرق وقتًا في حسم الأمر: لن أكشف لأحد عما رأيته في بيت هذه المرأة؛ ليس بسبب وعدي لها، وإنما لأنني سأجعل ذهابي إليها من الأصل في طي الكتمان .. ما اكتشفته اليوم لم يذهب إليه أكثر

الخيالات تطرفًا في القرية .. كانت الاستفهامات تمعن في الاهتياج داخل رأسي: هل قتلت حبيبها الروائي قبل أن تقطع عضوه؟ .. هل كانت تقصد بأن هذا العضو هو آخر ما تبقى منه بالنسبة لها فحسب، وليس بالنسبة للحياة نفسها، أي أنه لا يزال حيًا حتى الآن، ولكن بنقص فادح؟ .. أين حدث كل هذا؟ .. كيف حدث؟ .. هل يمكن أن تكون كاذبة حقًا؟ .. تريد هذه العجوز أن تقضي أيامها الأخيرة في هدوء برفقة العضو المقطوع لحبيبها الروائي الذي قاطع حديثها فوق مائدة مستديرة عن الفانتازيا .. لكنني مع ذلك لم أشعر مطلقًا بالغرابة تجاه نفسي حينما بدد تساؤل واحد كل هذه الاستفهامات قبل أن أتوسل للنوم في تلك الليلة: هل استعملت المرأة ذلك العضو المقطوع من قبل؟ .. تساؤل واحد استقر في عقلي كغيمة رمادية ضخمة، أخفى ظلها القاتم كل عماء آخر.

في الصباح التالي أخرجني من اليقظة الهزيلة، التي لم تبلغ حد النوم، ولم تحتفظ بوعي كامل اتصالًا من أحد أصدقائي ويعمل محققًا في شرطة القرية ليخبرني بأن شخصًا ما قد أبلغ عن صرخات عاتية انبعثت من بيت العجوز أثناء مروره بالقرب من بوابته؛ فأسرع بإبلاغ الشرطة، وعند وصول رجال الأمن إلى هناك اكتشفوا مقتلها .. كان يعلم من أحاديث سابقة بيننا اهتمامي بأمر هذه المرأة، ولهذا عرض عليّ مرافقته إلى بيتها وحضور المعاينة .. لم أستغرق وقتًا طويلًا حتى كنت أعبر بصحبته والطبيب الشرعي نفس العتبة التي قطعتها أمس .. شعرت بالجحيم الباطني ذاته، ولكن على نحو يسمح بانضباط عصبي أكبر .. كأن قتل العجوز كان أخف بدرجة ما من رؤية عضو ذكري مقطوع في حجرة مكتبها .. كانت جثة العجوز عارية تمامًا

وممددة على ظهرها في منتصف حجرة الطابق الثاني وسط بحيرة من الدماء .. كان ثدياها مبهرين إلى حد معجز، بحجميهما الكبيرين، وبهالتيهما الواسعتين، وحلمتيهما البارزتين، وامتلائهما اللامع والمتماسك، بالغ النعومة، في تنافر وحشي مع شعرها الطويل الأبيض المبعثر حول رأسها فوق البلاط الأسود، وتجاعيدها المشوّبة بالذبول، وبطنها الضامر، وفخذيها النحيلتين المتباعدتين بعظامهما الناتئة، اللتين انهمر الدم من بينهما، وأيضًا الكرمشة الكالحة لظهر كفيها، التي تكاد العروق النافرة أن تخترقها .. بدا كأن ثدييها اللذين تتناثر قطرات الدماء فوقهما قد عاشا في خصومة زمنية مع جسدها .. كان في عينيها المفتوحتين، ومسارات خطوط وجهها، والانفراجة الواهية، المضاءة بالدم لشفتيها السمينتين شعور متجمّد على متعة خارقة سرعان ما تقلّصت، وتحولت إلى رعب تصاعد إلى أوج اليأس .. كان الطبيب قد انتهى من فحصها، وعندما سأله المحقق عن سبب وفاتها أخبره بأنها حالة غريبة للغاية لم يقابلها أبدًا من قبل:

ـ يبدو الأمر كما لو أن شيئًا يشبه هراوة ضخمة قد اخترق مهبلها، وواصل شق طريقه ليمزق الأعضاء الداخلية حتى وصل إلى سقف حلقها ثم تم انتزاعه ثانية بقوة.

كنت خلال حديث الطبيب أتأمل البرواز الذهبي المعلق على الحائط .. لم يكن العضو الذكري موجودًا هناك.

الفرصة الأخيرة للنجاة

السلام عليكم يا ضرطات مقهى "اللبن" وفندق "مارشال المحطة" في التسعينيات .. منذ فترة قصيرة مات واحد منكم، وقد آلمني هذا بصورة لا يمكنكم تخيّلها، ذلك لأنه على الأرجح لم يقرأ قبل موته "لوحة سرطان الخصية"، أو "معارض متنقلة"، أو "أفراح العين الزجاجية المحتقنة" .. تلك قصصي القصيرة التي خلقت من بين أشباحها مَن كان منذورًا فقط لمعاقبته على العجرفة المسكينة التي كان يتمتع بها .. بالطبع لا أحتاج أن أذكّر كل ضرطة منكم بجروحها القديمة التي حفرتها تلك العجرفة المضحكة في جوفها العطن بالدخان والكحول والأطعمة الرخيصة .. سنوات طويلة جدًا امتلأت بالكوابيس المتلاحقة التي نجح تشابكها في تعطيلي عن إيجاد طريق آمن يمكن من خلاله أن تتسلل هذه القصص إليه .. أغلب الظن أن هذا الإخفاق في حقيقته ليس إلا احتفالًا جذريًا لتلك الكوابيس، التي لا شفاء من تضاعفها إلا بالموت .. لذا، وبما أن الشرج الغيبي الذي خرجتم منه قد بدأ في استردادكم؛ فإنني أرجو أن تسرعوا بقراءة "جرثومة بو" .. بحق الأشياء التي كنا نحدّق إليها في صمت من فوق طاولة واحدة، ودون أن يمتلكها أي منا؛ افعلوا ذلك في أقرب وقت ممكن، كأنها الفرصة الأخيرة للنجاة.

التأخّر عن الموعد

كان المطر غزيرًا، ولم يتوقف منذ أمس، وذلك لم يكن يعني بعد ثلاثة وأربعين عامًا سوى أنني لا أريد الوقوف داخل الشرفة ومد كفيّ خارجها لاحتواء قطرات منه، أو مراقبة تلاحقها فوق أرض الشارع، أو تنفس رائحته القديمة .. وراء الباب المغلق ظهر على شاشة هاتفي بثًّا مباشرًا لفتاة لا أعرفها، تعيش في نفس مدينة، وتصوّر المطر بنشوة طفولية من شرفة بيتها .. كانت تدمج صوته بـ Mia & Sebastian's Theme (Late For The Date) - La La Land .. كانت الفتاة جميلة وتصغرني بنحو عشرين عامًا، والشارع الذي يظهر في تصويرها لا تفصله عن بيتي أكثر من دقائق قليلة .. كان البث لا يزال مستمرًا حينما وجدت يدي تفتح باب الشرفة كي أقف داخلها .. فكرت في أنني والفتاة نشاهد نفس المطر في هذه اللحظة، ونستمع إلى الموسيقى ذاتها، ولكن من شرفتين مختلفتين .. مددت كفيّ محتويًا قطرات المطر، مراقبًا تلاحقها فوق أرض الشارع، ومتنفسًا رائحته القديمة .. قلت في نفسي أنني والفتاة أصبحنا نشاهد نفس المطر في هذه اللحظة، ونستمع إلى الموسيقى ذاتها، ومن داخل شرفة واحدة .. كأننا نعوّض لقاءًا مُهدرًا في الماضي، لم نتفق على حدوثه .. كان كل ما عدا ذلك علامات طريقين مختلفين نحو الموت.

الاحتجاز

ظلوا يحتجزونه سنوات طويلة جدًا داخل هذه الحجرة .. كان يمكن لتلك السنوات أن تكون أقصر في وعيه من زمنها الفعلي، لولا أنهم بدهاء عفوي جعلوا النافذة الصغيرة الوحيدة موجّهة فقط نحو السماء، بحيث يتعذر عليه رؤية أي شيء آخر في الخارج .. لم يكتفوا بذلك، وإنما تركوا له أيضًا مخزونًا من الأوراق والأقلام لكي يكتب ما يريد طوال مدة احتجازه .. كانوا يدركون تمامًا أثر ما يدبرونه، وهكذا صارت السنوات أطول بكثير من زمنها الفعلي.

كان تعذيبهم له رهيبًا .. على فترات متفاوتة التقارب كان يُفتح باب الحجرة ثم يدخل إليه شخص جديد .. كل مرة شخص مختلف عمّن سبقه .. أحيانًا يكون رجلًا، وأحيانًا يكون امرأة .. أعمارهم وملابسهم وحركات أجسادهم مغايرة لبعضها أيضًا .. يتقدم نحوه ذلك الشخص ثم يقف أمامه وينظر في عينيه، ويضحك .. ضحكاتهم كذلك غير متشابهة .. للحظات قليلة لا يفعل أكثر من الضحك ثم يغادر الحجرة ويغلق الباب ثانية .. سنوات طويلة جدًا قضاها عاجزًا عن مقاومة هذا التنكيل المتكرر .. يفقد في تلك اللحظات قدرته على الحركة والنطق وحتى على إغماض عينيه، ولا يستردها إلا بعد أن يصبح بمفرده مرة أخرى.

كان قادرًا على سماعهم بوضوح من وراء باب الحجرة، ولم تكن أصواتهم تؤكد سوى أنهم يعيشون حياة عادية، تماثل حياته المألوفة التي يقضيها في الأحلام كأنها الواقع .. لهذا كانت أقرب إلى حلم واحد ممتد بعدد

أيامه المتعاقبة، يعيشه كما لو أنه يشارك البشر دنياهم الحقيقية منذ الطفولة وحتى العُمر الذي صار إليه، ولا يحتاج بعد الاستيقاظ منه يومًا بعد آخر داخل الحجرة ذاتها إلى ما يحتاجه الشخص العادي .. لا يحتاج أن يأكل أو يشرب أو يضاجع أو يقضي حاجته أو يتحدث مع الآخرين أو يمشي في الشوارع أو يجلس في المقاهي .. كل هذا كان يؤديه داخل العالم التقليدي الذي يدخله بمجرد البدء في النوم، أما اليقظة فلم تكن تعني سوى الجدران والنافذة الصغيرة، والباب المغلق .. لكنه مثلما حُرم من معرفة الماضي الذي سبق احتجازه الغامض، والدوافع التي جعلته حتميًا طوال تلك السنوات، وموعد النهاية التي يعجز عن توقعها؛ لم يفهم كذلك لماذا كان عليهم تعذيبه بتلك الكيفية الثابتة التي لا تتغير .. كان بديهيًا أن يمضي عمره في تدوين أشكال الانتقام التي عزم على تنفيذها عندما يستطيع الخروج .. حدد لكل شخص أسلوبًا خاصًا في الثأر، يعتمد على طريقة الضحك التي يُعذبه بها، ولا تتطابق مع طريقة شخص آخر .. لهذا أيضًا بالضرورة؛ لم يكن من الممكن أبدًا أن ينسى وجوههم.

سنوات طويلة جدًا لم يفعل سوى النوم كي يحلم بالواقع، والتحديق في غيوم النهار والليل عبر النافذة الصغيرة، وكتابة خطط الانتقام من الضاحكين، والتلصص على أصواتهم من وراء باب الحجرة .. الأصوات التي بدأت ذات يوم في التناقص بتدرّج بطيء، ومعه تباعدت مرات دخول كل منهم إليه .. لكن هذا لم يخفف من آلامه، بل على العكس؛ كان هذا التناقص التدريجي في أصواتهم، والمقترن بتباعد نوبات التعذيب سببًا في تضاعف الضحكات القديمة داخل ذاكرته.

حينما اختفت أصواتهم تمامًا، ومرت فترة كبيرة دون أن يدخل إليه أحد، وبعد أن امتلأت كل الأوراق التي لم يهتموا من قبل بالاطلاع على ما دوّنه بها؛ جرّب أن يفتح باب الحجرة .. كانت هذه هي المرة الأولى التي يحاول فيها ذلك .. وجد الباب مستجيبًا لحركة يده التي جذبته للخلف .. كأنه لم يكن موصدًا في أي وقت سابق .. تحرّك إلى الخارج حاملًا أوراقه الكثيرة .. لم يجد السماء والأرض اللتين اعتاد رؤيتهما في الحلم؛ بل السماء كما كان يتخيّلها حين يحدّق في الغيوم عبر النافذة الصغيرة، والأرض كما كان يتخيّلها في وحدته الطويلة كظل هائل لتلك السماء .. فوق هذه الأرض تناثرت جثثهم التي يعرف وجوهها جيدًا .. لم يكن هناك غير هذه الجثث التي تجمدت ملامحها على الضحكات التي عذّبته طوال السنوات الطويلة جدًا .. السنوات التي صارت الآن أقصر بكثير من زمنها الفعلي .. مترنحًا بحسرته الثقيلة؛ راح يمر على كل جثة، ويضع بيديه الشائختين في فمها المفتوح والمتحجّر ورقة الثأر التي تخص صاحبها قبل أن يعود إلى داخل الحجرة ويغلق بابها بإحكام.

تراب سميك

أنهيت تناول الغذاء ثم توجهت إلى الحمام فيما كانت طفلتي داخل الشرفة، وزوجتي تقف عند باب الشقة، على وشك ارتداء حذاء الخروج .. أطفأت ضوء الحجرة وأغلقت بابها بعد خروجي من الحمام ثم توجهت إلى السرير للحصول على قيلولتي اليومية .. من تحت الغطاء الثقيل سمعت صوت باب الشرفة يُفتح ثم يُغلق، فاستنتجت أن طفلتي قد غادرتها حيث ستخرج مع أمها بعد لحظات للذهاب إلى بيت جدتها كالمعتاد .. سمعت طفلتي تسأل أمها: أين بابا؟.

لم أسمع رد زوجتي عليها، ومع ذلك لم يكن عندي سبب للشك في أنها ستخبرها بأنني نائم، أو على الأقل ستشير لها نحو حجرة النوم .. فجأة سمعت طفلتي تسأل زوجتي مرة أخرى، وبصوت أعلى: أين بابا؟ .. إذا كانت زوجتي قد تجاهلت الرد عليها، ربما لأنها غاضبة منها لسبب ما؛ فإنه من السهل على طفلتي تخمين أنني في السرير الآن مثل كل يوم في هذا الوقت .. لكن طفلتي كررت سؤالها للمرة الثالثة وبنبرة أقوى تقارب الجزع .. حسنًا، إذا كانت زوجتي قد قررت الاستمرار في عدم الرد عليها؛ لماذا لا تقطع طفلتي هذه الخطوات القليلة من الصالة إلى حجرة النوم كي تراني وتتأكد بنفسها من أنني نائم؟ .. فكرت أن أناديها وأخبرها بأنني في السرير لكن شيئًا مبهمًا كان يمنعني من ذلك .. سمعت صوت باب الشقة يُفتح، بيد زوجتي حتمًا، وأقدام تتحرك إلى خارجه، ثم سمعت طفلتي تبكي وتسأل أمها مجددًا بنحيب متوسل: "أين بابا؟" قبل أن يُغلق باب الشقة ويسود الصمت.

مهمة روتينية

يجلس الشاب هادئًا، مبتسمًا بثقة اعتيادية، لا يتحدث كثيرًا، بل يكتفي طوال الوقت بإيماءات حاسمة، وعبارات مقتضبة، تهيمن دون جهد على المساحة الصغيرة التي يشغلها مع الفتاة الجالسة بجواره .. ملامح الفتاة بالنسبة لي أقرب إلى الجمال الشهواني منه إلى الرومانسي؛ أي ذلك الذي يمنح المتعة مع إيقاعات المضاجعة أكثر مما يفعل مع نغمات الموسيقى الناعمة .. يدخل المقهى بخطوات سريعة رجل يبدو على نحو غامض أكبر عمرًا مما يحدده وجهه، يمسك في يده كتابًا لم أتمكن من تبيّن عنوانه ثم يجلس على طاولة مقابلة للشاب والفتاة .. كأن وسامة الشاب هي مصدر الاطمئنان العفوي الذي يتحكم به في لقاء تكرر حتمًا بينه وهذه الفتاة داخل أماكن أخرى .. تتكلم الفتاة كثيرًا، وتضحك بصوت مرتفع على وتيرة متقاربة،، وبالطبع لا تتوقف يدها عن الإمساك بكف الشاب وجذبها لتنشيط انتباهه، أو وضعها فوق ذراعه لتأكيد كلماتها في وعيه، كأنما تُكمل الحكايات المتعاقبة، أو المزاح المتغيّر، أو الجدل المُداعب بهذه الملامسات التلقائية، التي هي أقصى ما يُسمح للشبق أن يجسّده الآن .. الرجل يفتح الكتاب، ويبدأ في القراءة، لكن حركة عينيه اللتين لم تنظرا في وجه أحد منذ دخوله المقهى تكشف عن أنه لا يحب القراءة، أو أنها على الأقل لا تحتل مكانة متقدمة في قائمة هواياته .. الشاب والفتاة يُظهران إيمانًا مشتركًا بأن هذه اللحظة ليست مؤطرة بالعناصر التقليدية للحياة بل تخلق امتدادًا استثنائيًا لها في زمن وشيك .. يقلّب الرجل صفحات الكتاب كأنما لا يعنيه أكثر من الشعور بنفسه كقارئ، وأن يدرك الآخرون هذه الحقيقة عنه، لكن هذا لا يعني عدم الاكتراث بالحصول على معرفة يجهلها، وإنما يمرر

الأسلوب الذي يتصفح به الكتاب يقينًا بأن مضمونه لن يمثل إضافة لما يعلمه بالفعل، وهذا ما يجعله يغادر المقهى بعد وقت قصير، كأنه أنجز مهمة روتينية، بينما لا يزال الشاب مبتسمًا بثقة، والفتاة تضحك بصوت مرتفع.

اسم الميت

لا أحد يعرف عني شيئًا .. أنا الصبي البدين ذو العينان الساكنتان، والملامح اللامبالية التي أصبح جمودها بعد زمن طويل من التجوّل في المدينة مألوفًا لكم .. لا أبدو مشردًا تمامًا، كأن لدي عائلة، أسكن معها في بيت ما، لكنني دائمًا ما أكون بمفردي في الشوارع، أمشي بخطوات بطيئة، وفم مطبق، ومجرّدًا من أي علامة يمكنها أن تحدد هوية لي .. لم أطلب عطاءًا من أحد على الإطلاق .. كأنني امتلك كفاية مخبوءة من الطعام والشراب والملابس .. أنتم الذين تريدون مني أشياءً كثيرة .. أن تتبدّل مثلًا تلك النظرة الفارغة من المعنى في عينيّ، والتي بطريقة غامضة تمنحكم انطباعًا بأنني أتجوّل في المدينة منذ زمن أكبر مما تتصورون .. أن أضحك أو ابتسم أو أتجهم أو أبكي أو تبدو على وجهي الدهشة ولو لمرة واحدة .. أن أقول أي شيء يثبت أن ثمة ذاكرة مفهومة لوجودي .. لكنني أفعل هذا حقًا .. ألست أنا الذي كلما رأى سرادق عزاء، يدخل إليه ثم يسأل المعزّين عن اسم الميت، وحينما يخبرونه يضحك بقوة حتى تدمع عيناه فيسرعون بطرده خارج السرادق؟ .. ألست أنا من يفعل هذا كأنما أتذكر في كل مرة شيئًا ما قبل أن أعود إلى التجوّل في صمت؟.

البيت

لم يكن يستطيع أن يبوح بما يريد لأحد من الذين يتعاقبون كل يوم على ركوب التاكسي الذي يقوده، وتحديدًا الذين تُظهر ملامحهم تقاربًا مع عمره، خاصة أثناء الدوران آخر الليل في سكون المدينة .. لم يقدر حتى على النظر في عيني أي منهم، ولو عبر المرآة الأمامية الصغيرة .. كان كل ما بوسعه هو تشغيل أغنيات قديمة كشفرة متوسلة، يرجو أن يلتقطها الجالس بجواره ويستجيب لها، قبل أن ينتهي الزمن الوداعي للصدفة التي جمعتهما .. لكن دائمًا ما يترك المغادر خيبة أمل جديدة، إما بسبب عدم الانتباه، أو الفهم الخاطئ للرسالة الرمزية المنبعثة من مسجّل السيارة .. خيبة أمل تضاف لمثيلاتها التي تزايدت، وتوطد تلاحمها بمرور السنوات، بحيث أصبحت مكوّنًا سريًا للتاكسي، ومصدر ترنّحه المتفاقم، الذي لا يشعر به إلا سائقه العجوز .. لم يكن يستطيع أن ينظر بالدموع المتراكمة في عينيه لأحد كي يسأله: هل يمكنك أن تصف لي الطريق إلى بيتي؟.

صمت منفرد

خلال ثلاثين عامًا، غابت أشياء كثيرة عن البيت الذي مات أهله تباعًا، لكن الساعة ظلت كما هي، حتى المسمار الذي يحملها منذ البداية، لم يرتعش طوال تلك السنوات .. استبدلت أغراض عديدة أماكنها، لكن الساعة لم يتغيّر أبدًا موضعها على الحائط، كأنها جزء أصيل من تكوينه .. تراكمت على الموجودات القديمة آثار الزمن، لكن الساعة بقيت دون علامات ضرر، كشيء لم يُستعمل مطلقًا .. ربما يكمن السر في أن عقاربها قد توقفت عند لحظة محددة منذ ثلاثين عامًا .. اللحظة التي كنت أجلس خلالها كطفل غافل، تتنقل عيناه بين وجوه أسرته التي مازالت على قيد الحياة، ثم رأيت فجأة عجوزًا لا أعرفه، يمر في منتصف الشقة، جالسًا فوق كرسي متحرك قبل أن يختفي على الفور .. رجل عجوز لم ينتبهوا إليه، ولم أقدر على إخبار أحد بأنني رأيته، كما لم أعرف هل سيعاود الظهور ثانية أم لا .. لذا، وحتى لا تضيع ملامحه من ذاكرتي؛ قررت أن أغلق على نفسي باب الحجرة، وأن أحاول وصفه سرًا بكلمات مكتوبة، غير مُدرك بأنها ستصير القصة التي لن ينجو منها أحد.

غرام الطرقات

في مدينة كهذه، حيث تطارد المسالمين من العشاق الصغار عداوات متجذّرة، كان منطقيًا أن يكون لعجوز مثلها عمل مستقر .. يقصد بيتها ولد وبنت طلبًا للحماية فتخرج معهما، تسير برفقتهما داخل المنعطفات الهادئة أو الأقل ازدحامًا كأنها أم لأحدهما، كي تمنع عنهما التهديدات المحتملة عندما تتشبث كف كل منهما بالآخر .. تجلس بجانبهما فوق أريكة مواجهة للنهر فيقدران بفضل وجودها أن يتلاصقا، أو يختلسا على نحو متقطّع قبلات صغيرة، أو ملامسات جسدية أكثر تماديًا في أمان .. ما تكسبه العجوز من مهنتها لا يتجاوز بحسب ما أرادت تلك الحكايات التي تجمع كلماتها المتناثرة من عيون وملامح العشاق الصغار، وأفعالهم المسروقة في ظلها الأمومي، وهمساتهم الأشبه باعترافات غير متعمّدة لها، كذلك الانفعالات العابرة التي تحاول كتمان أسرارهم، فضلًا عن الكيفية التي يودّع بها كل منهما الآخر في نهاية اللقاء .. كانت أشبه بالخبيئة الثمينة التي يحتفظ بها زبائنها فيما بينهم، ولا يمررونها إلا لأقرانهم وثيقي الصلة من الأحبة الذين يقطعون خطواتهم الأولى داخل شوارع لا يستطيعون فيها وحدهم أن يصدوا الأذى عن أنفسهم .. هكذا استطاعت بالثقة المتبادلة أن تُبقي عملها خفيًا ورائجًا في ذات الوقت .. لم يكن حذرها راجعًا إلى أن معرفة الناس بمهنتها ستجعلهم بصورة عفوية يطلقون عليها "قوّادة غرام الطرقات"، وإنما لأن هذه المعرفة ستضع دون شك حدًا قاطعًا لعملها .. لكنها لم تكن تراهن فقط على وفاء زبائنها ـ الذي لم يُخدش أبدًا ـ بعهودهم معها، وإنما على الذاكرة المتخاذلة أيضًا لأولئك الذين يحاصرون العشاق

الصغار المسالمين في كل مكان، خاصة مع تحديد مواعيد متباعدة لخروجها معهم، والتغيير المستمر لمسارات سيرهم، ومواضع جلوسهم.

كان للعجوز في شبابها أحبة لا تتذكر هل خرجت برفقتهم أم لا، وكان لها زوج مات بعد خمسة وأربعين عامًا من لحظة إغلاق باب البيت عليهما وحدهما للمرة الأولى، كما كان لها أربعة أبناء، مات ثلاثة منهم وبقي أصغرهم .. طفل أصبح في الثانية والأربعين الآن، يشاهد أمه وهي تكافح بواسطة الكلمات المتناثرة من العشاق الصغار المسالمين أن تتوصّل إلى ما لم تستطع على الإطلاق أن تفهمه من حكاياتها الشخصية القديمة .. أن تدرك ما ظل غائبًا عنها طوال الوقت من حكايات زوجها وأبنائها الموتى داخل شوارع تلك المدينة .. يراها هكذا كلما أغمض عينيه، كأنما يوقظها من قبرها، ويدفعها للقيام بالأمر حتى تنقذه قبل أن يلحق بهم .. لكنها كلما استمرت في الخروج برفقة الأحبة، والمشي بجوارهم، أو الجلوس بجانبهم أمام النهر كلما شعر بوطأة احتضاره تشتد، ومع هذا لم يكن قادرًا على الامتناع عن جعل أمه الميتة تكرر ذلك .. كالعادة رسم في ذهنه صيغة ساخرة لهذا الذي أصبح طقسًا يدور بلا توقف داخل عتمة جفونه المطبقة .. اعتبر أن جسده قد اكتشف مرضًا جديدًا، غير مسبوق؛ فهو الكائن الوحيد الذي كلما أغمض عينيه كلما شعر بضيق حاد ومتصاعد في التنفس.

ذروة العادة

فجأة عرفت كل شيء...

كنت مستلقيًا فوق السرير، أحدّق إلى السقف، وأفكر في بعض الأمور الصغيرة المبهمة التي تركتها خارج البيت الذي لم أعد أغادره، قبل قطع علاقاتي بالجميع: لماذا انسحب المترجم تدريجيًا من صداقتنا؟ .. لماذا توقفت كاتبة القصة الشابة عن كتابة الرسائل لي على فيسبوك؟ .. لماذا ترك الناقد الأدبي عمله في دار النشر؟ .. لماذا كتب الروائي الشاب على تويتر تلميحات كثيرة عن الخيانة الزوجية؟ .. لماذا تحدث معي الروائي العجوز باقتضاب مرتبك في آخر مكالمة بيننا؟.

ربما كان يبدو أن عزلتي المغلقة ليست في حاجة لتفسير أشياء غامضة كتلك، خاصة بعد مرور وقت طويل على حدوثها، لكن الفضول القديم لإدراك الأسباب كان يستيقظ في نفسي بين حين وآخر.

على سبيل الانفصال المؤقت عن الطقوس اليومية المألوفة؛ قررت تكريس جهدي هذا المساء لمحاولة العثور على هذا التفسير .. كان الأمر ظاهريًا يماثل الشروع في لعبة جديدة طمعًا في مرح غير معهود، لكن جدية حاسمة كانت تملؤني حقًا بينما أعود لأوراق قديمة سبق لي تدوين ملاحظات، وإشارات هامشية بها على مدار أعوام متعاقبة .. تنقّلت أيضًا داخل وفرة من الملفات المختزنة على اللابتوب، والتي تحمل أفكارًا وهواجسًا قمت بتسجيلها منذ مدة كبيرة كملامح متناثرة تنتظر الوجوه التي ستراوغها .. ظللت أجمع المعلومات المفترض أهميتها من هذا الأرشيف، ثم بدأت أعمل على تشريحها

كي أخلق احتمالات مختلفة لخفائها المستمر في التصدّع .. سرعان ما أخذت هذه الاحتمالات تفرز نفسها، وتتحوّل انتقاءاتها الذاتية إلى ضرورات تتقدّم في طريق ثابت نحو الاستقرار كاستنتاجات مؤكدة .. شعرت بما يشبه ضوءًا نقيًا، ساطعًا انبعث دون تمهيد داخل ذهني؛ فاعتدلت على الفور كمحقق متقاعد اكتشف حل لغز الجريمة بعد سنوات كثيرة من وقوعها: عرفت أن المترجم قد انسحب تدريجيًا من صداقتنا نتيجة اعتراف حبيبته له بأنها تحبني، وما زاد الصدمة إذلالًا أن المترجم كان يعمل سرًا على ترجمة مختارات قصصية لي إلى الإنجليزية كهدية أراد أن يفاجئني بها تقديرًا لمكانتي عنده، وبالطبع تحوّلت بعد هذا الاعتراف إلى كابوس يجدر محوه تلقائيًا .. توقفت كاتبة القصة الشابة عن كتابة الرسائل لي على فيسبوك لأن اليأس استحوذ على نفسها كليًا من أن أقدم على خطوة رومانسية أكسر بها حاجز العلاقة التقليدية بين صديقين، وذلك بعد اعترافها للمترجم أنها تحبني بينما كان يحدّثها ببراءة مطلقة عن المفاجأة المترجمة التي يجهّزها لي .. ترك الناقد الأدبي عمله في دار النشر كإرضاء مستتر ومتأخّر للضمير، بعد إصراره على منحي المستحق للجائزة التي كان عضوًا في لجنة تحكيمها في مواجهة بقية أعضاء اللجنة الذين كان عليهم توزيعها في ذلك العام على إصدارات دار النشر التي كان يعمل بها الناقد، واستقال منها احتجاجًا على عدم فوز مجموعتي القصصية، في مقابل إعطاء الجائزة لمجموعة كاتبة القصة الشابة التي اعترفت للمترجم أنها تحبني ثم توقفت عن كتابة الرسائل لي على فيسبوك .. كتب الروائي الشاب تلميحات كثيرة على تويتر عن الخيانة الزوجية لأنه استمع خلسة إلى زوجته المحررة الثقافية وهي تتحدث تليفونيًا إلى صديقها الناقد الأدبي الذي

ترك عمله في دار النشر، وكان يشرح لها الدافع وراء الاستقالة؛ فكان ردها على الناقد بأنه في مجموعتي هذه قصة قصيرة من النوع الذي لا تمانع بعد قراءتها من أن تخون زوجها مع كاتبها .. تحدث معي الروائي العجوز باقتضاب مرتبك على الهاتف بسبب شعوره بالذنب؛ حيث طلب منه أحد الطلاب الجامعيين من قرّائه ترشيح رواية ذات سمات معينة تلائم موضوع البحث المكلّف بإعداده، وكان على وشك ترشيح روايتي بالفعل لكنه في اللحظة الأخيرة غدر بقناعته، وقام بترشيح رواية لصديقه المقرّب، الروائي الشاب الذي كتب تلميحات كثيرة عن الخيانة الزوجية كمجاملة له، وهي الرواية التي سبق أن ترجمها إلى الإنجليزية ذلك المترجم الذي اعترفت له حبيبته كاتبة القصة بأنها تحبني فانسحب تدريجيًا من صداقتنا.

ليس هذا فقط كل ما عرفته؛ فالضوء الساطع استمر في التدفق كنهر جارف، لا يحتاج لتذكر منبعه، أو ما وراء انسيابه في تلك اللحظات على هذا النحو المشوّق .. كان تفسير تلك الأمور الصغيرة المبهمة بمثابة الإرشاد السحري لفك شفرات الذاكرة بأكملها .. كأنه دليل الحكمة الشاملة أو المنطق الأساسي الذي أدركت بواسطته العلاقات الخفية التي كانت تربط بين عائلتي وأصدقائي وجميع من عرفتهم طوال الماضي .. ما يمكن أن أطلق عليه التاريخ السري لحياتي الذي ظل مطموسًا في وعيي كل الوقت .. فهم صلب، عفوي، راح يطغى بلا تمهّل ليتجاوز الكشف عن ذلك الواقع الأصلي المحدود إلى امتلاك الخلاصة العارية لتاريخ العالم نفسه .. استوعبت تمامًا حقيقة الخيوط المتشابكة التي كنت معميًا عنها، وتمتد بيني والبشر كافة منذ بداية الوجود، ولن تنقطع حتى نهايته .. استطعت تحديد الصلة المختبئة ـ مثلًا ـ بين

سقوطي في عمر العامين من فوق كرسي الاستوديو قبل لحظات من التقاط صورة لي مما نتج عنه تورّم رأسي، وشعور عجوز إيطالي بالحنين لأيامه الأولى مع زوجته، ولميلاد طفلتهما في نهاية القرن التاسع عشر .. بين صاحب المكتبة الذي أخبرني في سعيه لصداقتي بأن عينيّ تعريان الآخرين كعيني سلفادور دالي، وأغنية "رصيف نمرة خمسة" لعمرو دياب .. بين مرض أبي بالزهايمر قبل موته، والعقيدة الغنوصية .. كل شيء أصبح واضحًا.

لكنني وجدت نفسي أتساءل حول كيفية الاستفادة من هذه المعرفة داخل الظلام المتحجّر بين هذه الجدران وحولها منذ زمن بعيد .. ما الذي يمكن أن أفعله حقًا بكل ما اكتشفته، والذي من المؤكد أنه أقصى ما يمكنني الحصول عليه من حركة يدي اليمنى الأزلية أمام المرآة؟ .. كان حتميًا أن تختفي ابتسامتي، وأعود للاستلقاء، والتحديق إلى السقف، والتفكير في التوصّل إلى طريقة مثالية لاستغلال هذه الذخيرة الخارقة لصالح الأمر الوحيد الذي تبقّى لي .. أن أحاول جعل انتظاري للموت مختلفًا بصورة ما داخل البيت الذي لم أعد أغادره، ولا أعلم هل سأنجح في هذا أم سيكون موتي هو الآخر مجرد منديل ورقي مكرمش على أثر جاف لامتنان عابر في سلة القمامة .. من أخدع!، ربما أتمنى لموتي أن يكون هكذا بالفعل.

الموت العجيب لطائر

لتفسير المشهد الصادم الذي باغتني عندما فتحت شباك حجرة نومي المُطل على الشارع الخلفي للبناية التي أسكنها؛ افترضت أن رحلة الطيران المتطوّح للكيس البلاستيكي الصغير قد انتهت بدقة قدرية غريبة عند هذا القضيب الحديدي البارز ضمن عدة قضبان مماثلة من حافة سطح البيت الذي لم يُكتمل بناؤه، والملاصق لشباك حجرتي .. أن ثلاثة ثقوب كانت بالكيس، وأن مصادفة لا تُصدّق قد جعلت هذه الثقوب توزّع أدوارها كمصيدة محكمة بحيث يهبط الأول على طرف القضيب البارز فيمر عبر فراغه الضئيل مثبّتًا الكيس بصلابته المرتفعة، ويتسع الثقب الثاني في طرفه بما يسمح للطائر الذي لم أتمكن من تحديد نوعه أن يعبر إلى الداخل، بينما يترك الثقب الثالث في منتصف الكيس مساحة خبيثة لجناحي الطائر كي يرتفعا من خلاله نحو الخارج، ولكنها لا تكفي لمرور بقية جسده، أو لخفض الجناحين ثانية واسترداد وضعيتهما السابقة .. أن الطائر ظل عالقًا، غير قادر على الانفلات رغم المحاولات المتكررة التي ربما استغرقت وقتًا طويلًا، وانتهت بموته محتجزًا داخل الكيس كتمثال من العفوية الخالصة، خلقت القضبان الحديدية المنتصبة مسرحًا مثاليًا لعرضه .. كانت القضبان في تجاورها وتقاطعها فوق الحافة تكوّن ما يشبه هيكلًا هوائيًا لتقديم القرابين، أو كأنها أعمدة صغيرة لغرفة إعدام مفتوحة، يمثّل الكيس البلاستيكي مشنقة تتدلى من أعلى إلى منتصفها.

هل يُحتمل أن يكون وقوع الطائر في هذا الفخ قد بدأ قبل أن يثبّت الكيس نفسه في القضيب الحديدي؟ .. تخيّلت أن الطائر ربما دخل إلى الكيس

بينما كان لا يزال محلّقًا في الهواء، وأنه نتيجة لثقل الطائر العاجز عن تحرير جناحيه فقد تهاوى الكيس نحو القضيب البارز الذي اخترق ـ بنفس الدقة القدرية الغريبة ـ فراغ الثقب ليُبقي الكيس الممتلئ بالطائر عالقًا به .. كيف يمكن الاقتناع بهذا التصوّر؟ .. لماذا دخل الطائر إلى الكيس أصلًا؟ .. هل كان يبحث عن طعام؟ .. هل فعل ذلك كنوع من المرح الاعتيادي؟ .. هل كان يُطارد طائرًا آخر، أو حيوانًا نجح، على عكسه، في الهروب قبل اصطياده؟ .. هل استحوذت على وعيه رغبة محصّنة، لم يفهمها، أجبرته على دخول الكيس؟ .. هل كان أعمى، أم أن الظلام كان حالكًا إلى هذه الدرجة؟ .. كان مستوى القضيب المنتصب ـ رغم ارتفاعه ـ منخفضًا بالنسبة لطائر لن يدفعه مؤثر للنزول إليه سوى إغراء لا يقاوم، أو احتياج قهري بلغ ذروته .. هكذا اعتقدت.

كيف بدأ الحدث الغامض وانتهى دون سماع أي صوت لمجاهدة الطائر في التملّص من الكيس، أو نداء استغاثة ليأسه بعدما أيقن استحالة تخليص جناحيه رغم المسافة الصغيرة للغاية بين شباك حجرة نومي والسطح المجاور؟ .. هل لم يكن يستطيع النطق؟ .. كيف لم يقدر على تمزيق الكيس بمنقاره أو بمخالبه؟ .. لم يكن بوسعي تبيّن أدوات المقاومة هذه بسبب الحالة الشكلية التي تتخذها جثة الطائر، ولكنني فكّرت في ضرورة وجودها، مثلما كان لدي تأكد من أنه لو كان قد حاول استخدامها فإنها لم تكن ستُجدي نفعًا رغم الهشاشة المفترضة للكيس .. هل مات نتيجة الاختناق، أم بسبب الجوع والعطش، أم بفعل المجهود الشاق الذي بذله، أم تحت وطأة الرعب؟ .. هل كان مريضًا؟ .. لماذا يبدو الطائر كأنما دفع حياته ثمنًا لجموح اضطراري، لا يمكن

لأحد سواه أن يستوعبه؟ .. كانت جميع التفاصيل التي تُشكّل سطح البيت الخالي، غير المشيّد بالكامل، وكذلك الفضاء الواسع المحيط به تستبعد تمامًا أي تدخّل لقصدٍ بشري في الأمر .. لم يكن بمقدور أي شخص الوصول إلى هذا المكان ومغادرته إلا بعد النجاة من سقوط يكاد يكون حتميًا، فضلًا عن غياب الدافع المنطقي الذي يمكن أن يقود إلى تدبير هذا المشهد، والإقدام على مخاطرة مهلكة كتلك في سبيل تنفيذه .. هل ما استحوذ على وعي الطائر وقتئذ كانت رغبة انتحارية مبهمة، وجدت ضالتها على نحو مفاجئ في الكيس العالق بالقضيب الحديدي؟.

جعلت زوجتي تتفحص المنظر، ولم يخرج تفسيرها عما افترضته من قبل، وظل غير مقنّع بالنسبة لي ... التقطت بهاتفي المحمول صورة لجثة الطائر، وأطلعت عائلتي وأصدقائي ومعارفي عليها، ولم يمنحني أي منهم تبريرًا مُرضيًا يُعارض ما تخيّلته، أو حتى يضيف إليه أو يعدّله .. اتفقوا جميعًا على ما بدا أنها حقيقة بديهية، كان رفضي لها يزداد طمأنينة يومًا بعد آخر، رغم أنها كانت أول ما خطر تلقائيًا في ذهني عند رؤية الطائر .. كان لدي يقين بأن ثمة تفسيرًا حاسمًا، مغايرًا تمامًا لأي تصوّر ممكن يعتمد على مشيئة الصدف، والتعاقب العفوي للوقائع التي أنتجت هذا اللغز .. كنت أدرك أن هذا التفسير يكمن في خفاءِ ما، ينتظر اللحظة المناسبة لإزاحة ظلامه المتمنّع، وبالكيفية الجديرة بالكشف عن التعمّد المجهول لما حدث.

مرت سنوات كثيرة منذ هذا اليوم .. مع ذلك كانت قليلة جدًا بالنسبة لي .. ظل كل ما ينتمي إلى الماضي يتبدد بانسياب تدريجي أمام طغيان لا يخفت لهذا المشهد، ومحاولتي المستمرة للعثور على الحقيقة .. أصبحت الأيام كلها

يومًا واحدًا ممتدًا عبر السنوات، ومغلقًا بإحكام على السر الذي لم أنجح بعد في التوصّل إليه .. يوم واحد، بدأ كعمرٍ آخر منذ اللحظة التي فتحت خلالها شباك حجرتي، ووجدت جثة الطائر المعلقة فوق حافة سطح البيت الذي لم يُكتمل بناؤه حتى الآن .. توقفت ذاكرتي شيئًا فشيئًا عن استرجاع ما لا يتعلّق بهذا السر، ولم يتمكن أي مما جرى في العالم بعد ذلك، أو حتى داخل الواقع الذي يخصني بصورة مباشرة من التسلل إلى هذه الحياة الجديدة مهما كانت أهميته أو ضراوته .. حتى طفلتي لم تعد بالنسبة لي أكثر من كائن يعيش خارج عزلتي، تتوالى فحسب على جسده متغيرات النمو .. أحلامي نفسها ـ مع ندرتها ـ امتنعت عن مغادرة مشهد الطائر، وإن بقي هذا المنظر كما هو في اليقظة، لا يخدشه تحريف أو تشابك مع صور أخرى .. لم أعد أفكر سوى في اللحظات الغامضة التي سبقت موت الطائر داخل الكيس البلاستيكي الصغير العالق بالقضيب الحديدي .. توقفت عن القيام بأي شيء عدا إطلاع الغرباء في كل مكان على صورة الطائر، وسؤالهم عما يظنون أنه قد حدث قبل تحوّله إلى جثة .. كل هذه السنوات لم تضف جديدًا، ولم تُعطل التفسير القديم الخائب الذي كلما تراكم تصديقه، كلما تعمّقت سذاجته في نفسي، وتوحّشت كراهيتي لسطوته .. بمرور الزمن راح يتلاشى كل ما كان يحدد هويتي عند الآخرين، ولم أعد بالنسبة للجميع سوى "الرجل الذي يطارد الموت العجيب لطائر".

أعتقد أنه لم يعد لدي الكثير من الوقت، ورغم أن سنواتي الأخيرة قد اقتصرت بشكل قاطع على التفسير الغائب لموت الطائر إلا أنني لم أشعر للحظة واحدة بأنني أهدرتها .. على العكس؛ لا تزال ثقتي تتزايد في أنني كرّست هذه السنوات لأكثر الأمور صوابًا، بل لن أكون مخطئًا لو قلت أن هذا

الانشغال المهيمن بالطبيعة الملغزة لموت الطائر كان بمثابة الختام الوحيد اللائق بحياتي التي نجحت في تعزيز انفصالها عن الخرافات الأخرى .. أن الماضي بأكمله الذي سبق لحظة اكتشافي لجثة الطائر كان يسعى من أجل هذه النهاية على نحو مستتر، وإن كان لم يتوقف عن إعطاء العلامات الموحية بذلك بين حين وآخر .. وبالرغم من أنني لم أعثر على الحقيقة حتى الآن إلا أنني أشعر بالسعادة، ليس فقط لأن حياتي تنتهي بهذا النوع من الألم، بل لأن جثة الطائر لا تزال معلقة أيضًا في القضيب الحديدي رغم مرور كل هذه الفترة، ولم يظهر عليها أي أثر للفناء .. كأن الطائر لم يمت إلا منذ لحظة واحدة، أو كأنه يعيش في سكونه الطويل حياة مختلفة، لا يضمن استمرارها سوى محاولتي المتواصلة لإيجاد السر المختبئ .. أتخيل أنني إذا تمكنت ـ ولو في اللحظة الأخيرة من حياتي ـ من امتلاك التفسير الصحيح فإن الطائر لن يبدأ في زواله الجسدي بل سيكون باستطاعته الانفلات من الكيس العالق بالقضيب المنتصب .. هذا ما تؤكده الرعشات المتباعدة، متناهية الخفوت لجناحيه المحتجزين طوال هذه السنوات.

الوصية المضحكة لمستر بين

آخر كل مساء يجلس مع زوجته وطفلته كي يحكي لهما عن المعجزات الواقعية لأصدقائه الذين يتنقل بينهم يومًا بعد آخر .. كان يعرف أنه مع تراكم الليالي ستحلم زوجته برجال آخرين، مثلما ستحلم طفلته بآباء يشبهونهم .. حتى الآن، لا يزال يخرج من بيته كل مساء، فقط كي يجلس وحيدًا أمام النهر لوقت يطول أو يقصر وفقًا لقوة البكاء التي يعتقد أن بإمكان قلبه تحمّلها، ثم يعود إليهما ليواصل الحكي .. في نهاية الليلة يعطي بلا قصد الصوت الأكثر مهادنة لطغيان الصمت داخل حواسه؛ فلا يحلم سوى بـ "مستر بين" وهو يقرأ وصيته المضحكة لصديقه "تيدي."

كشيء في السماء

بعد أن يموت الجميع، ولا يتبقى من الذين كانوا يحاولون التظاهر بالحياة في هذا البيت سواك؛ ربما حينئذ يجدر بك الشعور بالذنب .. ربما عليك أن تفكر في أن كل ما فعلته طوال الماضي بعيدًا عنهم لم يكن سوى خيانة لعمائهم .. الشوارع التي مشيت فيها وحدك .. الأصدقاء الذين رافقتهم .. المدن التي سافرت إليها بدونهم .. الأماكن التي جلست فيها مع الغرباء .. المكالمات التليفونية والخطابات والرسائل والمحادثات الإلكترونية مع بشر لم يعرفوهم أبدًا .. زوجتك وطفلتك .. كل ما كتبته .. كل شيء قمت به، ولم يتعلق بهم كان انتهاكًا عظيمًا لغفلتهم .. ربما عليك أن تندم لأنهم لم يكونوا معك دائمًا في كل خطواتك .. نعم .. كان يجب أن تظل بجانبهم طوال الوقت في هذا البيت، وألا تفعل شيئًا سوى مساعدتهم في العثور على الحياة .. حتى لو كان كل ما ستقوم به ليس إلا منح فنائهم مزيدًا من العتمة .. حتى لو لم يكن بوسعك سوى الصمت أو الضحك أو البكاء كمتفرّج مدرّب جيدًا على ترويض السأم من العروض المتكررة .. حتى لو ظلوا يحاولون بلا هوادة قتل الغيب الكامن داخلك .. كان من الممكن ألا تشعر في وحدتك الآن بكل هذه الحسرة المقبضة لو فطنت مبكرًا إلى حقيقتك كشيء خارق، يصدّق أشباحه.

ضمير الغائب

بعد خروجي من البيت أصادف أحيانًا شخصًا له نفس ملامحي، يرتدي ملابسي ذاتها، ويمشي بالكيفية التي يطوّحني الموت بها في الشوارع .. كل مرة أستوقفه، كأنما قابلت صديقًا قديمًا، لم أره منذ زمن طويل .. أمد يدي إليه، وحينما أصافحه أشعر كأنني أطبقت كفيّ على بعضهما مثلما أفعل دائمًا حين أجلس وحدي وراء باب مغلق .. يتمعّن في وجهي بنفس عينيّ المرتبكتين، ويخبرني باللجلجة التي تتناثر عادة بشكل مضحك من ابتسامتي التائهة أنه لا يعرفني .. يعاود السير معتذرًا على النحو التقليدي البائس لهروبي المتعثر من المواقف المحرجة مع الغرباء .. لا أمنعه، وإنما أواصل المشي وراءه بحرص كي لا يشعر بخطواتي المتلهفة لمعرفة أين سيذهب .. لكنني أتوقف عن تتبعه، والتفت راجعًا إلى البيت بخيبة الأمل المعهودة حينما أراه كل مرة يستوقف شخصًا له نفس الملامح والملابس وطريقة المشي ثم يمد يده إليه كي يصافحه.

مسألة عائلية

داخل حجرة معيشة تقليدية تجلس امرأة ترتدي جلبابًا، وروبًا منزليًا مغلقًا فوق أريكة، وتنسج الكروشيه .. رجل 1 يرتدي بيچاما كلاسيكية، يجلس وراء مكتب، منهمكًا في الكتابة، وبجانبه كومة كبيرة من الأوراق التي انتهى من كتابتها .. رجل 2 يرتدي فانلة وشورت رياضيين، ويمارس تمرينات رياضية خفيفة .. رجل 3 يرتدي جلبابًا أبيض وفوقه عباءة بُنيّة، ويأكل من أطباق عدة فوق طاولة طعام .. رجل 4 يرتدي فانلة حمالات داخلية بيضاء، وبنطلون بيچاما، ويحلق ذقنه أمام مرآة معلّقة على الحائط .. رجل 5 يرتدي سلوبيت، وجورب صوف بلا حذاء، ويدور ببزازة صغيرة في فمه دون توقف، ساندًا رأسه على يده كما لو أنه في حالة تفكير عميق.

يكتب رجل 1 بحماس ما يبدو أنها الجملة الأخيرة ثم يضع الورقة التي انتهى منها أسفل كومة الأوراق على المكتب .. يقف وعلى وجهه ابتسامة واسعة ثم يقول للمرأة بسعادة:

ـ خلصت الرواية.

المرأة بنبرة عفوية، تخلو ـ مثل ملامحها ـ من انطباع محدد، ودون أن ترفع عينيها عن الكروشيه الذي تنسجه:

ـ هاتها انشر هالك.

يخرج رجل 5 البزازة من فمه ويصرخ:

ـ أنا إله السرد.

ثم يعيدها ثانية، ويواصل الدوران بنفس وضعية التفكير العميق...

يتحرك رجل 1 بالأوراق إلى المرأة التي تترك الكروشيه فوق الأريكة، وتأخذ الأوراق منه ثم تنهض لتخرج بها من الغرفة.

يعود رجل 1 إلى المكتب ويفتح لابتوب، ثم يبدأ في الكتابة وهو يقرأ ما يدوّنه، كأنما يخاطب الموجودين في الحجرة:

ـ "أصدقائي الفيسبوكيين .. بصراحة ومن غير زعل .. فيه فرق كبير جدًا في المستوى بينا ككتّاب عرب، وبين كتّاب الغرب .. هو نفس الفرق بالظبط بين الأهلي والزمالك، وبرشلونة وريال مدريد".

تدخل المرأة إلى الحجرة وهي تحمل نسخ الرواية .. تعطي نسخة إلى رجل 2 فيتوقف عن ممارسة التمرينات الرياضية ويبدأ في القراءة .. تعطي نسخة إلى رجل 3 فيتوقف عن تناول الطعام ويبدأ في القراءة .. تعطي نسخة إلى رجل 4 فيتوقف عن حلاقة ذقنه ويبدأ في القراءة .. تعطي نسخة الرواية إلى رجل 5 فيتوقف عن الدوران ويبدأ في القراءة .. تعود المرأة للجلوس على الأريكة وتواصل نسج الكروشيه.

رجل 1 يستمر في الكتابة على اللابتوب وقراءة ما يدوّنه:

ـ "إحنا بس مش فالحين غير في التهليل للجوايز إللي كلها فساد .. مجاملات وتربيطات وتوازنات .. حاجة تقرف فعلًا".

رجل 2 مخاطبًا المرأة، ونسخة الرواية لا تزال في يده:

ـ أنا هروح أنشر الخبر في الجرنان.

ثم يغادر الغرفة...

يُلقي رجل 5 بالرواية بعيدًا ثم يُخرج البزازة من فمه ويصرخ:

ـ أنا ظاهرة قد لا تتكرر.

ثم يعيدها ثانية، ويواصل الدوران بنفس وضعية التفكير العميق...

رجل 4 وبينما الرواية مفتوحة بين يديه؛ يشير برأسه إلى رجل 1 كي يقترب منه، قائلًا بجدية تامة:

ـ تعال ...

ينهض رجل 1 من وراء المكتب ثم يتحرك ليقف بجوار رجل 4 .. في الوقت نفسه يتحرك رجل 3 ليقف بينهما بفضول لمعرفة ما سيدور بينهما .. رجل 4 يشير لرجل 1 بإصبعه إلى صفحة في الرواية ويقول له:

ـ ركّز معايا .. بصفتي قارئ محترف أحب اعرفك إن الفقرة دي مش مناسبة للمتلقي العربي .. لازم تاخد بالك من الحاجات إللي زي كدا في أعمالك الجاية.

رجل 1 يهز رأسه بقوة قائلًا لـ رجل 4 بنبرة احترام:

ـ تمام .. حاضر.

رجل 4: عمومًا أنا هدّي الرواية دي 3 نجوم على جودريدز.

رجل 1 (بنفس نبرة الاحترام): متشكر جدًا.

رجل 4: ولا أقولك .. نجمتين كفاية.

رجل 1 (بالنبرة ذاتها وإن كانت مجروحة بخيبة أمل): متشكر.

رجل 4: ولا أقولك .. أنا ممكن أديها 3 نجوم على جودريدز، ونجمتين على "أبجد".

رجل 1 (وقد تخلّص صوته من خيبة الأمل): ألف شكر.

رجل 3 يجذب رجل 1 من ذراعه بعيدًا عن رجل 4 ويخاطبه بانفعال:

ـ تمام إيه، وحاضر إيه، وألف شكر على إيه! .. متسمعش كلامه، ده مابيفهمش أي حاجة.

ثم يفتح نسخته ويشير لرجل 1 بإصبعه إلى صفحة في الرواية ويقول له:

ـ ركّز معايا .. أنا كناقد أكاديمي أحب اعرفك إن الفقرة دي مش مناسبة للمتلقي العربي .. لازم تاخد بالك من الحاجات إللي زي كدا في أعمالك الجاية، وافتكر إللي قاله "رينيه ويليك": "إن العمل الأدبي لا يكتمل نجاحه إلا بتجاوب قارئه".

رجل 1 مندهشًا:

ـ لكن حضرتك قلت نفس إللي قاله القارئ المحترف بالظبط على نفس الفقرة.

رجل 3 :

ـ أيوه بس هو ما اقتبسش من "رينيه ويليك".

يخرج رجل 5 البزازة من فمه ويصرخ:

ـ أنا أمير الرواية الذهنية.

ثم يعيدها ثانية، ويواصل الدوران بنفس وضعية التفكير العميق...

يدخل رجل 2 إلى الحجرة وفي يده صحيفة، ليتوجه إلى المرأة الجالسة .. يرفع الصحيفة أمام عينيها ويقول:

ـ الخبر نزل.

المرأة بعفويتها الثابتة، دون أن تلتفت له، ومواصلة انهماكها في الكروشيه:

ـ إقراه.

رجل 2 (يقرأ من الصحيفة):

ـ عن دار "عين الخان" صدرت رواية "اعطني الجائزة يا سيد" للكاتب "ظريف العيّاط"، والتي تمزج بين الأبعاد التاريخية والواقعية والاجتماعية والخيالية والسياسية والرومانسية والصوفية، كما تجمع بين الأساليب الكلاسيكية والتجريبية، وكذلك بين تقنيات التداعي الحر وما وراء السرد وتعدد الأصوات، ولاشك أنها رواية مختلفة لكاتب مختلف عن الكتّاب المختلفين الذي يكتبون روايات مختلفة.

المرأة دون أن تبعد عينيها عن الكروشيه الذي تنسجه، وبنفس العفوية السابقة:

ـ كويس .. اديله الجايزة يا سيد.

يترك رجل 2 الصحيفة ، ويمد يده وراء ظهره ليُخرج درعًا ذهبيًا صغيرًا من داخل الشورت الذي يرتديه، ثم يشير لرجل 1 بالاقتراب ويقدم إليه

الدرع لحظة مصافحته في الوقت الذي يُسرع فيه كل من رجل 3 ورجل 4 بهاتفيهما لالتقاط صور هذا المشهد من زوايا مختلفة بينما يُطلق فم المرأة صفيرًا احتفاليًا وهي لا تزال منهمكة بملامحها الخالية من انطباع محدد في نسج الكروشيه .. تستقر وضعية رجل 2 وهو يمنح الدرع إلى رجل 1 أثناء المصافحة، وعلى وجهيهما ابتسامة واسعة، وعيونهما في اتجاه كاميرتي الهاتفين في يدي رجل 3 ورجل 4، اللذين يقومان كذلك بالتصوير "سلفي" مع رجل 1 ورجل 2 الثابتين على الوضعية ذاتها.

بعد انتهاء التصوير يعود كل شخص إلى ما كان يفعله: رجل 2 يمارس تمرينات رياضية خفيفة .. رجل 3 يأكل من أطباق عدة فوق طاولة الطعام .. رجل 4 يحلق ذقنه أمام المرآة .. رجل 5 يواصل الدوران بالبزازة الصغيرة في أرجاء الغرفة دون توقف، ساندًا رأسه على يده كما لو أنه في حالة تفكير عميق .. رجل 1 يرجع للجلوس على المكتب حاملًا الجائزة .. يفتح اللابتوب، ويبدأ في الكتابة، وقراءة ما يدوّنه:

"أصدقائي الفيسبوكيين .. احنا عندنا في الوطن العربي كتّاب موهوبين جدًا، وكتابتهم على أعلى مستوى، ولاشك إن الجوائز العربية المرموقة أصبحت حاجة أساسية ومهمة بالفعل لتقدير الكتّاب المتميزين".

السيرة الذاتية للكاتب

- ممدوح رزق
- كاتب وناقد مصري
- ولد في (المنصورة) 1977
- ترجمت نصوصه إلى الإنجليزية والفرنسية والإسبانية.
- يقوم بتدريس القصة القصيرة في ورشته للكتابة الإبداعية.
- شارك في تحكيم العديد من جوائز القصة القصيرة.
- شارك في العديد من الملفات الثقافية بالصحافة العربية.
- ألقى العديد من المحاضرات حول الكتابة والنقد الأدبي بمؤتمرات ومراكز ثقافية مختلفة.
- ينشر ترجماته للقصة القصيرة في المطبوعات الثقافية العربية.
- كُتبت العديد من الدراسات والقراءات النقدية عن أعماله.
- اختيرت قصته القصيرة "اللعب بالفقاعات" ضمن المجموعة القصصية التي تُدرّس لدارسي اللغة العربية، غير الناطقين بها، كنموذج للقصة العربية المعاصرة بجامعة ييل الأمريكية.
- اختير كتابه "هل تؤمن بالأشباح؟" عن كلاسيكيات القصة القصيرة كمرجع دراسي لطلاب قسم اللغة الإنجليزية بجامعة الأقصى.
- ينشر نصوصه ودراساته في الأدب والفلسفة والسينما والتحليل النفسي والمسرح والفن التشكيلي والتاريخ الثقافي في العديد من الصحف والمجلات والدوريات والملاحق والمواقع الأدبية.

كتب:

- نقد استجابة القارئ العربي / مقدمة في جينالوجيا التأويل - دار ميتا للنشر والتوزيع 2019
- المطر في كارمينا بورانا / قصص قصيرة - دار ميتا للنشر والتوزيع 2019
- تشارلز بوكوفسكي .. ما وراء اللعنة، وقراءات نقدية أخرى - دار عرب للنشر والتوزيع 2019
- جرثومة بو / نوفيلا - دار عرب للنشر والتوزيع 2018
- إثر حادث أليم / رواية - الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة إبداعات قصصية) 2017
- خيال التأويل / قراءات نقدية - مؤسسة نور نشر الألمانية 2017
- هل تؤمن بالأشباح؟ / قراءات في كلاسيكيات القصة القصيرة - دار ميتا للنشر والتوزيع 2017
- هفوات صغيرة لمغيّر العالم / قصص قصيرة - منشورات بتانة 2017
- خيانة الأثر / الدراسة الفائزة بجائزة المقال النقدي بالمسابقة المركزية للهيئة العامة لقصور الثقافة 2016 - دار ميتا للنشر والتوزيع 2016
- عتبات المحو / مقالات في النقد التطبيقي - دار عرب للنشر والتوزيع 2016

ـ دون أن يصل إلى الأورجازم الأخير / قصص قصيرة ـ مؤسسة المعبر للثقافة والإعلام 2015

ـ بعد صراع طويل مع المرض / شعر ـ دار عرب للنشر والتوزيع 2015

ـ فأر يحتفل بخطاب الحقيقة / مسرحية ـ دار عرب للنشر والتوزيع 2015

ـ الفشل في النوم مع السيدة نون/ رواية ـ دار الحضارة للنشر 2014

ـ مكان جيد لسلحفاة محنطة / مجموعة قصصية ـ سلسلة حروف (الهيئة العامة لقصور الثقافة) 2013

ـ الخبراء في الحياة / مسرحية من فصل واحد ـ دار ميتا للنشر والتوزيع 2013

ـ عداء النص / مقالات نقدية ـ دار حروف منثورة للنشر الإلكتروني 2013

ـ صندوق الذكريات / مجموعة قصصية للأطفال ـ دار عرب للنشر والتوزيع 2013

ـ خلق الموتى / رواية ـ سلسلة إبداع الحرية 2012

ـ قبل القيامة بقليل / مجموعة قصصية ـ دار عرب للنشروالتوزيع 2011

ـ سوبر ماريو / رواية ـ دار ميتا للنشر والتوزيع 2010

ـ بعد كل إغماءة ناقصة / نصوص ـ دار المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات 2009

ـ السيء في الأمر / نصوص ـ دار أكتب للنشر والتوزيع 2008

ـ رعشة أصابعه .. روح دعابة لم تكن كافية لتصديق مزحة / نصوص ـ مكتبة معابر الإلكترونية 2004

ـ جسد باتجاه نافذة مغلقة / مجموعة قصصية ـ سلسلة أدب الجماهير 2001

ـ احتقان / مجموعة قصصية ـ سلسلة إبداعات (الهيئة العامة لقصور الثقافة) 2001

ـ انفلات مصاحب لأشياء بعيدة / مجموعة قصصية ـ مطبوعات إقليم شرق الدلتا (الهيئة العامة لقصور الثقافة) 1998

كتب مشتركة:

ـ يوم واحد من العزلة / مجموعة قصص قصيرة جدا مع كتّاب عرب ـ دار فراديس للنشر والتوزيع 2013

ـ الكاتب وتحديات اللحظة الراهنة / دراسات مؤتمر اليوم الواحد لاتحاد الكتّاب مع نقاد مصريين 2012

ـ النمو بطريقة طبيعية / مجموعة قصصية مع كتّاب مصريين ـ دار ملامح للنشر 2009

ـ العامية كنز الإبداع / دراسات الملتقى الثاني للمّة بيت العامية المصرية مع نقاد مصريين 2009

ـ ملامح وعرة / ديوان شعر مع الشاعرين السوري (عبدالوهاب عزاوي)، والعراقي (صلاح حسن) ـ اتحاد كتّاب الانترنت العرب 2005

أفلام:

ـ قصة فيلم (مكان في الزمن) / روائي قصير ـ إخراج: نواف الجناحي 2019/ عُرض بمهرجان شيكاغو السينمائي الدولي 2020

ـ قصة وسيناريو فيلم (إخفاء العالم) / روائي قصير ـ مع فناني أفلام اسكندرية المستقلة / إخراج: محمد صبري 2012

ـ سيناريو فيلم (من أجندة الخيانة) / روائي قصير ـ بالاشتراك مع المخرجة الإماراتية (منال بن عمرو) / مجموعة دبي للأفلام ـ إخراج: منال بن عمرو 2008 / شارك بمهرجان الخليج السينمائي 2008

ـ قصة وإخراج فيلم (بازل) / موبايل ـ شارك بمهرجان القاهرة لأفلام الموبايل 2008

جوائز:

ـ جائزة المسابقة المركزية للهيئة العامة لقصور الثقافة عن المقال النقدي (خيانة الأثر) 2016

ـ القائمة القصيرة لجائزة (ساويرس) في القصة القصيرة عن مجموعة (مكان جيد لسلحفاة محنطة) 2015

- جائزة اتحاد كتّاب مصر عن قصة (دخول المرآة) 2014
- جائزة نادي القصة عن قصة (إنقاذ جيروم) 2013
- جائزة رابطة الأدباء العرب عن قصة (التخلص من الذباب) 2013
- جائزة (أحمد بوزفور) المغربية في القصة القصيرة عن قصة (إنقاذ جيروم) 2013
- جائزة شبكة المنصورة الإخبارية في القصة القصيرة عن قصة (الثقب الذي لا يعنينا في الساحر الطيب) 2012
- جائزة دار ملامح للنشر في القصة القصيرة عن قصة (النمو بطريقة طبيعية) 2008
- جائزة ملتقى مدد في الشعر عن نص (نار هادئة) 2007
- جائزة منتدى جريدة شروق الإعلامي الأدبي في القصة القصيرة عن قصة (بلا أدنى خجل) 2006

الفهرست

ت	الموضــوع	الصفحة
١.	ولقلبي سواده الفاتن	٩
٢.	شيء في مكان ما	١٤
٣.	ما قبل انسداد الأمعاء	١٥
٤.	دليل الألوهة	٢٠
٥.	خيوط الفناء	٢٢
٦.	العلامات المميزة	٢٣
٧.	بصمات سماوية	٢٤
٨.	خط دموي داكن	٢٦
٩.	خبرة اللعب	٢٨
١٠.	نجمة واحدة وريڤيو بلا قلب	٣٠
١١.	المقطوعة الأخيرة	٣١
١٢.	وجه الحائط	٣٣
١٣.	قطع غيار مستعملة	٣٥
١٤.	كورونا في مكان آخر	٣٧
١٥.	مجرد وقت	٣٩
١٦.	بندقية تشيخوف	٤١
١٧.	العضو المقطوع	٤٣
١٨.	الفرصة الأخيرة للنجاة	٥٤
١٩.	التأخّر عن الموعد	٥٥
٢٠.	الاحتجاز	٥٦
٢١.	تراب سميك	٥٩
٢٢.	مهمة روتينية	٦٠
٢٣.	اسم الميت	٦٢
٢٤.	البيت	٦٣
٢٥.	صمت منفرد	٦٤

ت	الموضـــوع	الصفحة
٢٦.	غرام الطرقات	٦٥
٢٧.	ذروة العادة	٦٧
٢٨.	الموت العجيب لطائر	٧١
٢٩.	الوصية المضحكة لمستر بين	٧٦
٣٠.	كشيء في السماء	٧٧
٣١.	ضمير الغائب	٧٨
٣٢.	مسألة عائلية	٧٩
٣٣.	السيرة الذاتية للكاتب	٨٥